روايات إسلامية
٢

عذراء جاكرتا

نجيب الكيلاني

كتاب المختار



(الطبعة العشرون)

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٢٤٠١٦

أسسه حسين عاشور عام ١٩٧٩

٣ حارة الجمل - المتفرعة من ميدان السيدة زينب - القاهرة

تليفون ،فاكس ٣٩٢٢١٥١

شخصيات الرواية

- ☆ الزعيم .. زعيم الحزب
- ☆ الزوجة .. زوجة الزعيم
- ☆ فاطمة .. فتاة جامعية تنتسب لجماعة «ماشومى» الإسلامية
- ☆ القائد .. قائد الحرس الجمهورى
- ☆ مورنى .. خليلة قائد الحرس
- ☆ نانج .. سجان
- ☆ قائد السجن السرى ..
- ☆ حاجى محمد إدريس .. أحد العلماء المجاهدين ووالد فاطمة
- ☆ أبو الحسن .. طالب جامعى - خطيب فاطمة
- ☆ جميلة .. عضوة فى المنظمة
- ☆ الضابط .. ضابط فى السجن السرى
- ☆ جنرالات - وجنود - ونساء ورجال وأعضاء بالحزب

بسم اللہ الرحمن الرحیم

الفصل ١

تناول الزعيم الكأس للمرة الخامسة. ومع ذلك فقد بقى محتفظًا بتوازنه، متماسكًا لأعصابه، عيناه تومضان فى فرح طارئ، وملامح وجهه قد بدت منبسطة لا يعلوها هم أو كدر، كان متوسط القامة آسيوى السمات بكل معنى الكلمة، جذاب السمرة، ومال على زوجته ورفيقة كفاحه وهمس :

– « أنت زوجة ورفيقة .. امتزج حبنا بالمبادئ .. أليس هذا أروع حقيقة فى الوجود ؟ » هزت « تانتى » كتفيها فى امتعاض، واستدارت صوب الباب المغلق وهى تقول فى غير قليل من الضيق :

– « أنا أعرفك ..» .

– «بالتأكيد .. يا قمرى المضئ .. أشرقت على أثناء أعوام الدراسة فى الخارج .. يا لها من لحظات رائعة .. عندما التقيت بك . نسيت كل الفتيات الجميلات الشقراوات وأصبحت أنت أروع حقيقة فى . . .» .

أشاحت بوجهها وهتفت مقاطعة :

– « أنت لا تفكر إلا فى نفسك . . .» .

بدا على وجهه الأسمر ومضات من غضب وقال :

– « أنا حامى الجماهير الكادحة .. وهبت حياتى لقضيتهم العادلة فكيف ترميينى بالأنانية، يا تانتى ؟ »

نظرت إليه فى غيظ :

– ألاعيبك لا تخفى على وأنا أعرف نزواتك العديدة فى المنظمة . والمنظمة هى منظمة الحركة النسائية وهى تضم عددًا كبيرًا من

الفتيات المثقفات اللاتى يرمن بسوء الأحوال فى البلاد ، وتلوث فكرهن بالثقافات المتضاربة فانتهز الآخرون الفرصة .. واستغلوا بلبلتهن الفكرية ، وتطلعهن لمستقبل أفضل ، واستطاعوا أن يقدموا إليهن خليطًا من الأفكار المرقعة التى تجمع بين الطموح والمجد والقومية والقشور الدينية من الجانب السياسى ، بأسلوب مرن بارع ، فانخرطن فى سلك التيار الذى يتزعمه الزعيم ..

وتدرك جيدًا أن زوجها يحب أربعة أشياء : هى الكأس والنساء والخطابة والشهرة . ولذا غمزت بإحدى عينيها قائلة :

– « أنا أعرف جيدًا ما يدور فى اجتماعاتك المغلقة بهن ..» .

نظر إليها فى أسف وقال :

– « لشد ما أخاف أن تكون الأفكار البرجوازية المعقدة قد تسللت إلى رأسك الجميل ..» .

صرخت فى غيظ :

– « أنا امرأة ...» .

– « وأنا رجل ..» .

– « لقد انتهى عهد السلطان وحريم السلطان ..»

– « هذه حقيقة ..» .

ضربت بقبضتها على منضدة من الخشب الثمين مطعمة بالعاج والفضة وهتفت :

– « أصبحت أكره كلمة حقيقة .. إنك تكذب .. ثم تتحدث عن الحقيقة ..» .

أتنكر أنك على علاقة بمدام ساسترو .. الرفيقة المحترمة .. وسورايا .. ومورنى .. وغيرهن . ! ابتلع ريقة وقال فى تلعثم :

– « افهمينى يا حبيبتى .. لو تناوبتك الشكوك هكذا فى كل امرأة

أقابلها، فمعنى ذلك أن أعمال الحزب ستتعطل .. نحن نسابق الزمن ولا مجال لتضييع الوقت .. يجب أن تدركى أنك زوجة زعيم الحزب، ووزير من أكبر الوزراء، وعضو المجلس التأسيسى، وعضو البرلمان، ونائب رئيس المجلس الاستشارى الأعلى، والحامل لأعلى وسام من أوسمة الدولة ...»

ضحكت فى سخرية مؤلمة وهمست فى حنق :

– «لا شك أن هذه مؤهلات عظمى تمنحك الحصانة الكاملة لتفعل ما يحلو لك ..»

ثم انتصبت كنمرة مفترسة وهدرت :

– «يجب أن تفهم أن كل ذلك تحت حذائى .. أنا امرأة لها كرامتها ..»

أخذ يلوح بسبابته اليمنى مستنكرًا ويقول، وقد لعبت الخمر برأسه :

– «لا .. لا .. ليست هذه التى أعرفها. هذه أعراض تنتاب المرتدين فى كل العصور .. إذا جعلوا المبدأ العظيم دون تطلعاتهم الشخصية ...»

مدت رأسها نحوه، وأحنت خصرها النحيل، وقد وضعت يدها اليمنى وسطها، وبسطت كفها اليسرى تجاهه وقالت :

– «وأنت ! ! أنت تعبد ذاتك .. أنت كل شىء .. والحزب بماله وكادراته .. وأيضًا نساؤه الجميلات كل ذلك من أجلك ..»

هز رأسه وتمتم :

– «أنت فى حاجة إلى غسيل مخ ..»

– «لست إقطاعية .. ولا رجعية .. ولا ثورة مضادة ..»

أخذ يضحك .. ويضحك ..

طوقها بذراعيه ، وطبع على ثغرها قبلة طويلة ، فهمست فى ضعف ظاهر :

– « إنى أكرهك ..»

– « النساء يعكسن البديهيات ..»

– « لتكن وزيرًا أو زعيمًا .. لكنك نذل ..»

ضحك ثانية من كل قلبه ، ثم قال :

– « إن إحدى زوجات الرئيس تذوب وجدًا بين ذراعى .. لكنى لا أطيقها ..»

– « ولماذا تراقصها إذًا ؟ »

– « لسبب بسيط يا حبيبتى .. حتى لا يغضب الرئيس .. إنه بالنسبة لنا فرصة تاريخية .. ومن ثم فإن مراضاته والمحافظة عليه حتمية تاريخية » كما يقولون .. أنه أعظم نصير رجعى للفكر التقدمى ..

قالت وهى تتناول كأسًا :

– « أصبحت أمقت هذه المصطلحات الحزبية لكثرة تكرارها ..»

شرد بضع لحظات ثم قال :

– سنجعل من الرئيس قنطرة نعبرها إلى قمة السلطة .. وبعد ذلك نسحقه كحشرة .. إنه من مخلفات الرجعية والعصور البالية .. وستخفق الرايات الحمراء فى شوارع جاكرتا ..،فى آلاف الجزر الخضراء .. وستجدين ملايين الصور لزوجك تغطى الجدران والنوافذ والأبواب .. واللافتات .. وستتحدث صحف العالم عن الزعيم كما يتحدثون عن .. نجوم العالم ورؤسائه ..

سأكون أحد المحررين الكبار .. وسأجعل من الجزيرة الصغيرة التى ولدت فيها قبلة الزوار والسواح .. وسأجعل من زوجات

الجنرالات الكبار أرامل .. وسأسوق علماء الدين كما تساق الأغنام .. هذه الحيوانات المنقرضة .. سأحكم مائة مليون من البشر .. الذى أمامك الآن .. سيكون إله بلادنا الجديد .. ما معنى كلمة « إله » إنه القوة الخلاقة المسيطرة الجبارة .. سأكون كذلك ..»

قالت فى خبث وقد هزتها كلماته ، وزايلها غضبها ، وأرادت أن تعابثه :

– «لكن الإله غفور .. باق .. وأنت .. ستموت يومًا ما ..»

احتقن وجهه فى غيظ وتمتم :

– « أنا أختار من الصفات ما يروق لى ..»

– «ستكون إلهًا ناقصًا أو نصف إله يموت ..»

– نظر إليه وقد تخضلت أهدابه بقليل من الدموع ثم دق المنضدة بقبضة متشنجة وصرخ :

– « لا تذكرى الموت ..»

أحنت رأسها فى دلال وقالت باسمة :

– « آمنت بك ..»

ابتسم ..

ثم عاد يقول : « إن المستقبل فى أيدينا ، وأن نسيم الشرق يهب ليطغى على نسيم الغرب ..»

قالت : « أجل .. التاريخ يعيد نفسه ..»

هتف محتدًا : « التاريخ لا يعيد نفسه .. تلك فكرة رجعية منتنة .. فى كل يوم جديد .. صور جديدة للصراع تنبت دائمًا .. ومبادئ جديدة تولد وأنبياء لكل عصر .. هذا فجر الانتصار .. الغرب يموت ويتأكل .. لأنه يضاد منطق الحتمية .. والشرق ينضج ويصحو ويسيطر .. لأنه

فهم مغزى القصة الأزلية .. وأدرك معنى التاريخ .. انظرى .. إننى أرى كل شيء أمامى . الرايات .. الدماء تصبغ الجزر .. وتحيل الورود الصفراء إلى حمراء .. الفقراء يغنون أغنية حلوة .. أنظرى .. جماجم العلماء الخربة تنهشها الكلاب .. لا شك أن جدى كان تتريًا .. إنى معجب بتاريخ المغول والتتار .. وثورة القرامطة والزنوج .. وعبيد روما .. وأتباع مزدك فى فارس .. هؤلاء الذين كانوا يسحقون المواضعات القديمة .. كانوا يجربون كل شيء .. لكن للأسف لم ينجحوا تمامًا .. قال لى مهندس هولندى أبان الاستعمار الهولندى لبلادنا .. الدين هو العقبة الوحيدة فى طريق تقدمكم ..» وكان أبى عبد الله يرتجف كلما تكلمت عن الدين .. ويفتح القرآن ليقرأ فيه .. كان بدنى يقشعر وأنا أسمعه يرتل الآيات .. وكانت خطاياى أكثر من أن يغفرها الله .. الحقيقة يا تانتى أن اليأس ملأ كيانى .. وأنا أكره أن يحكمنى أحد .. لقد خلقت لكى أكون حاكمًا .. وخلقت لكى أفعل ما يحلو لى .. »

اقتربت منه «زوجته» وربتت على كتفه فى حنان وقالت :

– « أنت تهذى .. كفى كلامًا ..»

لم يكترث لها ، بل انطلق يتكلم : « وحاول المبشرون أن يسيطروا على عقلى ليحولونى إلى الديانة المسيحية عرضوا على المال .. والمنح الدراسية .. ولوحوا بفتيات جميلات كالورود اليانعة .. زعموا أن الاعتراف أمام «الأب المقدس» يمحو الذنوب .. آه هذا عصر الفلسفات الكثيرة .. إن رأسى يدور .. السعيد فى هذه الحياة هو الحيوان .. لن يبعثه الله ولن يحاسبه .. تمنيت فى أوقات كثيرة أن أكون حيوانًا .. بلادنا يطحنها الشقاء ..»

ضحكت تانتى ، وقالت وهى تخلع معطفها ، وتبدو مفاتنها :

- « هون عليك .. ما الذى يشقيك هذا قصرنا ملئ بكل شيء .. والخدم يروحون ويجيئون .. ولدينا أموال طائلة .. والحزب بكادراته تحت تصرفك .. »

ثم غمزت بإحدى عينيها :

- « ونساؤه أيضًا .. يقبلن يديك .. »

ضمها إلى صدره فى حرارة ، وتمتم :

- « حياة الحيوانات .. ممتعة .. ممتعة للغاية »

❁❁❁

الفصل ٢

كانت الندوة التى نظمت فى إحدى كليات «جاكرتا» ندوة ممتعة، وعلى الرغم من مرور خمسة أسابيع عليها إلا أن الزعيم مازال يذكرها جيدًا، وخاصة إنها كانت قاصرة على فتيات الجامعة، لقد وقف على المنصة، وأخذ يشرح كيف أن المرأة كالرجل تمامًا فى التكليف وحمل أعباء الرسالة الإنسانية فى خدمة الجماهير الكادحة وتحريرهم، وكان يكرر أنه قد سقطت مبادئ عصر «حريم السلطان»، ومبادئ «حزام العفة» وأخذ يردد وهو يبتسم :

– «ليست عفة المرأة من نوع آخر غير عفة الرجل وعصر الإقطاع كان ظالمًا، فلم يصنع للرجل حزامًا للعفة كما للمرأة، يجب أن تكون حياتنا الجديدة شعارها أن لا تفرقة بين الرجل والمرأة ...»

وتحدث كثيرًا عن حتمية التاريخ، وحكم الطبقة، والبرجوازية المتعفنة، والأمبريالية وأعوانها والرجعية ومخططاتها، والإتجار بالدين ..

ثم تحدث عن الحلال والحرام، أكد أن الخوف المبهم من الجحيم والآلهة، إنما هو مصدر العقد النفسية والأمراض العصبية، والتردد والوهن والجمود، وهو المسئول الأول عن السلبية الضاربة فى شتى البلاد.

وخلص بعد عرض ذكى بارع إلى أن الحلال والحرام بمفهومهما الصحيح يتركز فى أن كل ما نهض بالشعب وحقق نفعًا ماديًا، وساعد فى إشعال الثورة «التقدمية» فهو الحلال ولا شيء غيره وعكس ذلك

تمامًا هو الحرام، بصرف النظر عن كل ما ورد من قيم عتيقة ونصوص قديمة ..

وضجت القاعة بالتصفيق الحاد، كامن فتيات المنظمة هن اللاتى يبدأن بالتصفيق والهتاف، وكن يرددن الشعارات البراقة المحفوظة، وكان الزعيم يقف سعيدًا مبهورًا بالمظاهر الضخمة التى تحيط به، كان حلو النكتة، لاذع التعليق، سريع البديهة، قادرًا على استثارة عواطف الجماهير، وتوجيهها الوجهة التى يريدها ..

وشقت الصفوف فتاة غريبة الشأن .. قاصدة المنصة التى يتكلم من فوقها الزعيم، كانت فى حوالى العشرين من عمرها، أجمل ما فيها عيناها اللتان تشرقان حيوية وإيمانًا وجلالاً، وكانت طويلة الأكمام، ترتدى على رأسها شالاً أبيض يخفى شعرها، ويبرز وجهها المتألق النضر، قالت وهى تقترب من الزعيم :

– « ايسمح لى السيد أن أدلى بتعليق .. ؟ »

انحنى فى أناقة، وافتر ثغره عن ابتسامة كبيرة، وأفسح لها مكانًا أمام المكروفون ..

قالت « فاطمة » – وهذا هو اسمها – :

– « إننا نغالط أنفسنا حينما نظن أن المرأة كالرجل تمامًا .. فالعلم يؤكد أن لكل طبيعته .. هرمونات الرجل .. غير هرمونات المرأة .. قوة عضلاتها غير قوة عضلاته .. وظائفها الفسيولوجية غير وظائفه .. أيمكن أن تكون هذه الحقائق كلها غير ذات موضوع ؟؟ أيصح أن يكون ذلك التركيب العضوى والنفسى دون تأثير »

إن الخطب الحماسية .. غير العلم .. هذا ما أريد أن أؤكده ..»

وحدثت ضجة، وغمغمات عالية كان مصدرها الفتيات غير أن

الزعيم ابتسم ، وأشار عليهن أن يصمتن حتى تكمل فاطمة حديثها ..
وعادت فاطمة تقول :
- « والحلال والحرام عقيدة دينية مصدرها الله .. جاءت على أيدى أنبيائه الكرام .. وهى أعلى منالاً من فكر الإنسان وتصوره القاصر .. القتل حرام .. السرقة حرام .. ولن تصدق أى فلسفة فى قلب الصورة ...

والحكم لا تحدده مصلحة طبقية مهما كان وزنها ، ولكنه مجموعة من القواعد العادلة التى أقرتها شريعة الله لمصلحة جميع الناس .. واختلاف الناس فى المهارات الشخصية والجسدية والمادية يجمعهم على معنى سام .. هو الإخوة .. الإخوة غير العداء الطبقى .. الإخوة تجعل من الجميع سواسية كأسنان المشط أمام الله وأمام القانون ..»

وساد الهرج والمرج مرة ثانية .. إلا أن الزعيم لوح بيده مهدئًا فانصاع الجميع لرأيه ، ومضت فاطمة تقول :
- « أفكاركم بمفهومها الطبقى هى الحقد .. والعقد النفسية .. هى إرساء قواعد التناحر الدموى ، وإتلاف القيم الإنسانية الرفيعة ..

وكان مجئ الدين الإسلامى فى بلادنا .. ثورة على الفساد والظلم والتبعية والعبودية .. كان باعثًا للقيم الفاضلة فى قلب الإنسان .. كان مولد حضارة .. هذا ما هو ثابت فى التاريخ القديم والقريب .. المؤمنون وحدهم هم الذين تصدوا لجبروت « هولندا » ، وصارعوا « اليابان » وحققوا الحرية .. وسحقوا شيعة الكفر والعبث ..

إننا نلعب بالنار إذ نستغل انهيار الأوضاع الاقتصادية ، ومأساة الفقر ، فى تحويل الناس إلى العقائد الفاسدة الدخيلة .. ونقضى على تميزنا القومى والدينى بفلسفات مرقعة ..»

ولم تستطع فتيات الحزب هذه المرة أن يتصدين لموجة التصفيق

العارمة التى قوبلت بها «فاطمة» تأييدًا وتحبيذًا لآرائها ..

فأسرع الزعيم إلى المنصة، ثم ردد نفس الكلمات التى كان يخدع بها جماهير العمال، وقف يقول :

– «لله ما فى السماوات وما فى الأرض .. إننى أطالب بتحقيق عدالة الإسلام .. التى تحارب الفقر والظلم والمجاعة والمرض والجهل .. لكن فئة من الناس تريد للشعب المسلم أن يظل فقيرًا مريضًا جاهلًا حتى يستطيعوا أن يبقوا ويحتفظوا بمراكزهم .. إنهم يدعون بأنهم مسلمون، بينما هم يحاربون تعاليم الإسلام .. أنهم يتهموننا بالإلحاد .. فإذا كان الخير والرفاهية هو ما يسمونه إلحادًا فمرحبًا بالإلحاد .

إننى قرأت القرآن والتفاسير كلها، فلم أجد جملة واحدة تؤكد هذا المعنى .. فالإسلام يحارب الفقر والجهل والمرض .. وهذا ما تدعو إليه مبادؤنا وهى الإسلام شيء واحد .

وكان التصفيق هذه المرة ضعيفًا واهنًا، الكثيرات لم يستطعن أن يفهمن، فالتقاط معنى من هنا ومعنى من هناك، لا يفيد القضية المطروحة فى هذا الوسط الجامعى ..

لذا فقد ثارت فاطمة وهتفت فى عصبية :

– «أنت تسخر من عقول الناس أيها الوزير وتخدعهم ..»

فضجت القاعة بالضحك الممتزج بالتصفيق والهتاف، وأحمر وجه الزعيم خجلًا، تندى جبينه بالعرق، لكنه حافظ على هدوئه واتزانه، واقترب من مكبر الصوت وقال :

– «إننى سعيد بآراء الزميلة الفاضلة .. فلكل وجهة نظره .. وسوف استكمل معها النقاش بعد المحاضرة، فقد طالت بنا الجلسة» .

ترددت فاطمة عشرات المرات فى الذهاب إلى مقر المنظمة «لمقابلة» الزعيم طبقًا للاتفاق الذى تم بينهما بعد المحاضرة، كانت يائسة من تحول الزعيم عن رأيه، فهى تعرف مركزه فى الحكومة والمجلس الاستشارى، ووزنه العقائدى فى حزبه الكبير، وفى المنظمات العالمية، وليس من المعقول أن ينحاز رجل هذا ثقله إلى رأى فتاة فقيرة ضعيفة، ومع ذلك فقد قررت الذهاب إليه، من يدرى؟ لعله لن يأتى، فلتذهب لمجرد المشاهدة والتأمل، كى ترى بنات جنسها كيف يفكرون ويتحركن فى منظمة كهذه .. والزعيم كاتب كبير فى الصحف والمجلات، وشخصيته مرموقة فى المجتمع، وهى تريد أن تسبر غور شخصية كهذه. إنها رحلة شيقة ممتعة أن ترى كبار القوم كيف يفكرون ويتجادلون ..

ولم تستطع «فاطمة» أن تخفى حقيقة الأمر عن والدها حاجى محمد إدريس .. وقد كان شيخًا تخطى الستين من عمره، تجول كثيرًا فى بلاد العالم، تلقى العلم فى الأزهر الشريف، وحج إلى بيت الله الحرام، وزار أوربا مرة واحدة، وهو بمثابة مدير لعدد من المدارس الإسلامية التى أنشأتها جماعة «ماشومى» الإسلامية ..

ابتسم حاجى محمد وقال:

– «أرى أن ذهابك عديم الجدوى ..».

– «هذا إذا قيس بمدى تجاوبه لرأيى .. لكنى أهدف إلى شيء آخر .. أريد أن أرى .. مجرد الرؤية».

مسح على لحيته البيضاء، وقال:

– «الزعيم تلميذ مخلص .. وابن بار للثقافة الملحدة .. الجميع يعرفون ذلك .. هو ثعلب خطر ..»

قالت فاطمة فى لهفة:

– « أنه لا يملك سوى الكلمات الطنانة » .

– «لكنه يا ابنتي ذو طموح خطر .. وله تأثير كبير على رئيس الدولة » ..

– «ليكن .. إن إيماني أقوى من سفسطته » ..

– «لن تصلي إلى نتيجة » ..

– « إن له قطاعًا كبيرًا من المؤيدين ويجب كشفه »

ضحك حاجي محمد إدريس وقال :

– « أربعة أخماس العالم مخدوعون بطريقة أو بأخرى » ..

– « أود أن أقابله » .

– « حسنًا .. لا تذهبي قبل صلاة المغرب » ..

حينما دخلت فاطمة مقر المنظمة شدت الأنظار إليها بقوة ، علقت إحدى الفتيات قائلة «سقطت القديسة » وتضاحكت ، وهمست أخرى : «تتزيى بزي الملائكة في عصر الشياطين » ، وقالت ثالثة : « أقسم أن هندامها جميل ومثير ... لكن لماذا دخلت هنا ؟؟ » مالت عليها جارتها قائلة وهي تغمز بإحدى عينيها في خبث :

– « هي على موعد مع الزعيم ؟؟ » .

تلعثمت خطوات فاطمة ، لم تكن تدري أين تتجه ، لكن اضطرابها لم يطل ، فقد قدمت فتاة ناهد ، تضع على صدرها شارة الحزب ، وترتدي سروالًا أصفر وصدارًا صوفيًا يبرز مفاتنها ، وطاقية بيضاء .. وتقدمت صوب فاطمة وقالت :

– « هو قادم بعد لحظات ..»

الغرفة التي جلست فيها فاطمة تتوهج بالألوان ، والسجاجيد الفاخرة ، وهناك منضدة كبيرة حولها أكثر من ثلاثين مقعدًا ، ثم .. هناك شعارات كتبت بماء الذهب ... وشخصيات أخرى ثانوية كلها دخيلة .. لم تنهض على أرضنا أولها تاريخ في بلادنا .. نحن هنا في

هذا المكان نستعير كل شيء .. حتى البطولات ..» وجاء الزعيم ..
كان أنيقًا كعادته باسمًا ...

– « إننى سعيد بهذا اللقاء .. وبرغم مسئولياتى الكثيرة ...
إلا أن أروع اللحظات لدى هى التى أجد فيها إنسانًا يفهمنى ..
ويدرك أبعاد الحقيقة .. المعرفة نور .. أنا ابن هذه الأرض الطيبة ..
أنا وأنت صوتان معبران عن مأساة هذا الشعب مهما اختلف النداء ...
» .

وصمت برهة ثم قال :

– «حسنًا .. سوف نلتقى عند نقطة أظننا لن نختلف عليها .. إننا جميعًا نؤمن بوحدة الطبقة العاملة » ..

رفعت فاطمة يدها محتجة وهتفت :

– « أنا أؤمن بوحدة الشعب كله » .

ابتسم الزعيم وقال :

– « الشعب هو الطبقة العاملة فى الحقيقة » ..

وابتلع ريقه واستطرد :

– «والطبقة العاملة هى العمال والفلاحون والمثقفون الأحرار والجنود التقدميون » ..

قالت فاطمة فى شجاعة :

– « الطبقة العاملة فى نظرك ممن يؤمنون بفلسفتك »

– « شيء كهذا » ..

– «لن نلتقى إذن » ..

– « اللقاء ممكن دائمًا » ..

– «ليس فى المبادئ أنصاف حلول » ..

– «نحن نسميها سياسة مرحلية .. أو فترة انتقال .. أو أى

شيء » .

لم يتضايق إلا عندما قالت :

– « أنتم تخدعون أنفسكم والشعب » ..

– « نحن نخطط لحياة أفضل برغم كل شيء » .

– « لكنكم تقتلون أعداءكم .. تخطفون معارضيكم .. أو تضطهدونهم » ..

– « الشريعة الإسلامية تبيح ذلك فى بعض الأحيان » ..

قالت فاطمة فى حدة :

– « لستم ممثلين للشريعة .. الشريعة ليست فلسفة تقبل الصدق والكذب .. ولكنها حقيقة إلهية » ..

ربت الزعيم على كتفها قائلاً « عزيزتى » فانتفضت وابتعدت عنه قائلة :

– « لا تلمسنى » ..

– « ماذا فى ذلك ؟؟ ألم تراقصى صديقًا فى حياتك ؟ »

قالت فاطمة :

– « زعمت بالأمس أنك مسلم ، وتقرأ القرآن ، وتعرف التفاسير هل فى الإسلام الذى قرأته ، ما يبيح مراقصة الأجانب ؟؟ وفى الحفلات العامة ؟؟ »

ضحك حتى كاد يستلقى على قفاه ، وقال :

– « نحن فى القرن العشرين . ثم ، ألم تقرئى شيئًا عن جوارى الخلفاء ؟ »

– « لست جارية .. »

أدرك أنها من الفتيات اللاتى يستعصين عليه تمام :

– « إننى أفخر بك كصديقة ذات شخصية قوية برغم اختلاف الرأى

بيننا » ..

– « جئت لكى تقنعنى أو أقنعك » ..

– « يفصل بيننا ثلاثة عشر قرنًا من الزمان » ..

– « إذن انتهينا » ..

– « لكن إعجاب الرجل بالمرأة لا يعرف فوارق .. ألم تسمعى عن فيلسوف أحب أو رجل عصرى أحب ريفية ساذجة ؟ هل قرأت قصة سندريلا ؟؟ » .

قالت فى بساطة عجيبة .

– « أنت عابث » ..

ابتسم وتمتم :

– « لكى تفهمينى يجب أن تقرئى عددًا من الكتب ..

نظرت إليه فى شىء من السخرية وقالت :

– « لى محاولات فى كتابة الشعر والقصة .. قرأت لبوشكين .. وجوجول وغيرهم .. وقرأت مؤلفاتك .. لكنى أن أسقط فريسة ثقافة واحدة .. قرأت أيضًا تاريخ شعب بلادنا والتاريخ الإسلامى .. وإقبال شاعر الهند وطاغور » ..

قال فى برود :

– « فلتقرئيها مرة ثانية » ..

– « لتفعل أنت ذلك » ..

فاجأها بسؤال غريب ، لم يخطر على بالها :

– « هل تقبلين الزواج ؟؟ »

نظرت إليه فى استغراب ، وقالت :

– « محرم شرعًا الزواج من رجل لا دين له » ..

– « لكنى مسلم » ..

– « بشهادة الميلاد فقط » ..
– « ليس الفرق كبيرًا » ..
سحبت حقيبتها ، وقالت :
– « السلام عليكم »
وظل ينظر إليها ، وهى تدق الأرض فى ثقة حتى بلغت الباب ، ثم عالجته بتؤدة ، وما أن خرجت حتى صفقته فى شدة .. وبقيت صورتها الطاهرة الزاهية مسيطرة على خياله ..
لا يدرى الزعيم لماذا تذكر زوجته فى هذه اللحظة بالذات ، وأخذ يستعيد لقاءهما معًا فى أول مرة .. كان كل شيء بسيطًا سهلًا .. تحابا .. ورقصا .. وتنزها فى شتى الأماكن .. وعبا من كأس النشوة .. ثم تزوجا .. لكنه الآن أمام فتاة رجعية فقيرة ترفض الزواج منه .. من وزير .. وزعيم .. أكبر حزب .. هل كان يتصور أن يحدث ذلك ؟
وتمتم فى ثقة لا حد لها :
– « إنى قادر قادر .. وسأعرف كيف أسحق كبرياءك ، وأمزق الأوهام التى تغلف رأسك الجميل » ..

❁❁❁

الفصل ٣

كان الزعيم يمضى هادئًا سريعًا داخل قسم «الاستخبارات» التابع للحزب، وكان ينظر إلى الملفات الضخمة الكثيرة التى تملأ الأرفف، وتخفى ورائها الجدران، وتصل حتى السقف العالى وكان قسم الاستخبارات مقسمًا إلى أقسام أصغر، كل قسم متخصص فى حزب من الأحزاب الدينية أو السياسية أو الثقافية فى شتى أنحاء البلاد، كما أن هناك أقسامًا خاصة لأسلحة الجيش المختلفة كسلاح الطيران والمدفعية والبحرية .. إلخ، وتوجد ملفات خاصة بالضباط، ولم ينسى الملفات الخاصة بكبار الكتاب والشعراء، حتى مشايخ المتصوفين ذوى الأهمية والتأثير لم يتجاهلهم، وكذلك المشاهير من خطباء المساجد وأساتذة الجامعات ..

دلف الزعيم إلى باب ضيق، وعبر سردابًا طويلًا ثم ضغط على زر صغير فانفتح باب جانبى، وما أن فتح الباب السرى حتى وجد رامى جالسًا ينتظر ..

– «أعتقد أنك قد أعددت كل شيء» ..

وقال رامى وهو يسدد نظراته الحادة، ويضع بعض الأوراق أمام الزعيم :

– «هذا كل شيء عن الكولونيلات والجنرالات»

قال الزعيم وهو يتنهد فى ارتياح :

– «لا يصح أن يفلت أحد منهم» ..

– «أعرف ذلك جيدًا» ..

- « وتذكر أن الموت هو الحل النهائى لأى خلاف سياسى » ..
- « بالتأكيد يا سيدى الزعيم » ..
- « والرحمة عند الثورة حماقة » ..
- « أجل » ..
- « وليس لدينا شخص نصف نصف .. أما أن يكون معنا أو علينا .. المعتدلون أو المستقلون عبء على المجتمع بل لعل خطرهم مزدوج .. هم أعداء » .
- « كل ذلك فى الحسبان » ..

وقال المدعو رامى :

- « والسلاح ؟؟ » .
- « هل وصلت الشحنة الأخيرة ؟؟ » .
- « نعم .. سيدى إليك البرقية » ..

أمسك الزعيم بورقة صغيرة وأخذ يقرأ :

- « وصلت البضائع .. الرجا سرعة توزيعها مخافة التلف » .

وشرد الزعيم بضع لحظات ، ثم تمتم :

- « الجنرالات أفسدوا الثورة السابقة .. أغلبهم مسلمون متدينون ..

وقد سحقوا رجال تلك الثورة .. إذا سقط الجنرالات هذه المرة ، فسيكون النصر أسرع مما نتصور » .

هز « رامى » رأسه ، ثم قال :

- « وتلك قائمة محررى الصحف .. القسم (أ) محكوم عليهم بالموت .. والقسم (ب) للزج بهم فى المعتقلات ..» وأخذ رجل الاستخبارات يقدم إليه القوائم المختلفة بفئاتها ، والزعيم يناقشه فى

كل شيء تفصيلاً .. وقبل أن ينصرف الزعيم قدم «رامى» صورة فوتوغرافية لفتاة .. نظر الزعيم إليها جيدًا ثم ابتسم ، بينما قال رجل الاستخبارات :

– « إن وجودها فى كلية الآداب وسط طلبة الجامعة يبعث على القلق » ..

– « أعرف كل شيء » ..

وتنهد الزعيم قائلاً :

– « دعها الآن » ..

– « فهمت غير ذلك يا سيدى الزعيم » ..

– « من الحماقة أن نشدد عليها العقاب فى هذا الوقت بالذات .. إن أصابع الاتهام ستشير صوبنا بالتأكيد » ..

– « آخر التقارير تفيد بأن عددًا من الفتيات أخذ يتبعها » ..

– « ليكن » ..

وصمت برهة ثم قال :

– « يكتفى بأن يثار حولها الغبار .. قولوا مثلاً أن أباها عميل هولندى سابق .. وأنه يتلقى المعونات من الخارج .. وأنه تربطه بالمخابرات الأجنبية صلة .. وشوهوا سمعتها .. انسجوا من حولها القصص العاطفية المثيرة .. أتعلم ذلك يا رامى ؟؟ إنها بالتأكيد ستجن .. أو تكون مناط السخرية بين الطلبة والطالبات » ..

وقهقه قائلاً :

– « الموت أنواع » ..

فى الحقيقة أن رجال الحزب فى بلادنا قد استطاعوا أن يسيطروا على الإدارة المدنية أصبحت المناصب الرئيسية فى أيديهم ، ووضعوا أعوانهم فى المراكز الحساسة سواء فى الصحف أو الإذاعة أو

المخابرات ، ولذا قال الزعيم ..

– « فى الحقيقة نحن الحكام الفعليون .. نحن نحكم من يحكمنا .. الرئيس نفسه أحد رجالنا .. وهرول الزعيم بعد ذلك خارجًا من مقر الاستخبارات ، كان على موعد مع قائد الحرس الجمهورى .. وهو شاب متحمس كبير الآمال ، يحظى بصداقات كثيرة ناجحة ، وله مكانة مرموقة ، يحب العمل كما يحب اللهو ، المدخل إليه أن تثنى عليه ، وتمتدح شجاعته وذكاءه ، وكان لقاؤه مع الزعيم فى « فيلا » فاخرة يملكها أحد أعضاء الحزب الكبار فى إحدى ضواحى العاصمة .. وعندما دخل الزعيم كان قائد الحرس يصب كأسًا لنفسه ولإحدى خليلاته ، وقال حين رأى الزعيم :

– « جئت فى وقتك .. لنشرب معًا » ..

ثم مال على أذنه مكملاً :

– « نخب الانتصار المرتقب » ..

قالت الخليلة « مورنى » :

– « أنا هنا » ..

مال عليها القائد معانقًا ومقبلاً وهو يقول :

– « أنت الجنة على الأرض » ..

تغاضبت عابثة وقالت :

– « الجنة تعنى الهدوء والظلال والنسيم الرائق .. وأنا لست كذلك » ..

ابتسم الزعيم معلقًا :

– « هى أبعد نظرًا منك .. النساء يحببن اللعب بالنار .. ويكرهن الجنة » ..

ضحك القائد فى مرح وقال :

- « إنهن يحيرننى » ..
ثم التفت صوبها قائلاً :
- « أنت الجحيم بعينه » ..
قالت محذرة :
- « ستحترق بنارى » ..
- « أعشق مثلك النار يا غانيتى » ..
وكان هناك بضعة نفر من أصدقاء الزعيم والقائد ، وكذلك عدد من فتيات الحزب الجميلات ، وأخذ الجميع يرقصون على أنغام موسيقى راقصة لعلها يابانية ، ومن آن لآخر تنبعث التأوهات والضحكات المتكسرة ، والضوء الخافت الأحمر يوشى المكان بسحر ملتهب غامض ..
ومال الزعيم على أذن قائد الحرس وقال :
- « هناك أنباء خطيرة » ..
نظر إلى الزعيم بعينين محمرتين من أثر الشراب وقال :
- « أنا لا أهاب شيئًا » ..
- « قائد القوات البرية أعلن أنه سيقوم بحملة تفتيش على السلاح ، ويذيع أن رجال الحزب يسلحون أنفسهم) .
تأرجحت نظرات القائد وقال :
- « يجب القضاء عليه فورًا » .
- « ماذا تقول ؟؟ إن ذلك قد يؤدى إلى كارثة » .
- « ما الحل إذن أيها الزعيم ؟؟ »
- « التعجيل بالحركة ككل » ..
هز رأسه وقال :
- « ونقضى عليه عند البدء » ..
- « بل سنقضى على كل الجنرالات غير رجال الحزب قال القائد

فى ضيق ظاهر :

– « لا تزعجنى بالتفاصيل .. ضع الخطة .. وقل لى أبدأ ..

وسابدأ على الفور » ..

– « إن الرجل الذى سيكون توقيعه هو الأول على البيان الأول للثورة جدير بأن يعرف كل شيء » ..

قهقه وعلق :

– « الرئيس معنا .. وغالبية الجيش معنا .. ورجالنا فى كل مكان .. إننى إذن أستطيع أن أقود ثورة ضد السماء ذاتها » ..

مسح الزعيم على كتفه فى ارتياح وتمتم :

– « لنا النصر » ..

وجاءت الفتاة – رفيقة القائد – وقالت فى تيه ودلال :

– « إن مجئ الزعيم أفسد علينا متعتنا » ..

ابتسم الزعيم فى رضى ، هو يعلم أنها تنفذ الأوامر الصادرة من الحزب بدقة .. ثم هم واقفًا وقال :

– « ساترككما الآن .. وسنكون على اتصال دائم » ..

لم يلتفت القائد إليه ، فقد كان مشغولاً بفتاته التى طوقته بذراعيها الجميلتين .. ثم صارت هى والقائد والزعيم يرقبهما من بعيد حتى دلفا إلى إحدى الحجرات ..

وعندما صارا وحدهما ، قال القائد وهو يترنح :

– « أنا لم أهزم قط فى معركة حربية .. ولم تهزمنى امرأة » ..

ضحكت ضحكة خليعة وقالت :

– « أنت تبالغ .. المرأة لا يهزمها أحد » ..

نظر إليها كثور هائج وعيناه تتوهجان رغبة :

– « أنت لى يا مورنى » .

هجم عليها ، وأمسك بذراعها فى عنف ، فصرخت ، وضمها إليه فى ارتياح ، وهو يغمغم :

– « الأبطال وحدهم يصنعون التاريخ .. ومن ثم فإن لأبطال الشعوب حقوق لا تحد .. لهم ما يشاءون .. القوانين لغيرهم .. أما هم ففوق القانون ..

هم صانعوا التاريخ الكبير .. يسقط الخونة .. يسقط العملاء .. الموت لأعداء الشعب » .

ثم سقط على الأرض وهو يهذى وسرعان ما راح فى سبات عميق ، وبقيت مورنى واقفة تقهقه من كل قلبها ..

❁❁❁

الفصل ٤

كان «حاجى محمد إدريس» يشعر بضيق ما بعده ضيق، فهو يرى أن الأمور تسير من سيء إلى أسوء، فالبلد فى حالة من الفوضى لا مثيل لها، السلطة الفعلية فى البلاد فى أيدى العملاء والأحوال الاقتصادية تسوء، وتتردى فى الحضيض، السياسة العامة للحكومة لم تقدم حلًا للجياع والمتعبين، برغم التشدق بالخطب الرنانة، والشعارات الجوفاء، والحكام يعيشون فى واد وباقى سكان الجزر التعساء يعيشون فى واد آخر، زوجات الرئيس يسافرن فى رحلات إلى الخارج، كل واحدة منهن تنفق عشرات الألوف من الدولارات، من العملة الصعبة التى تحتاجها البلاد، وقصور الرئيس عامرة بالتحف والمجوهرات والمتع المختلفة، حفلات الرقص الصاخبة فى قصور الرئيس، والتى يشترك فيها عديد من الشخصيات الكبيرة وعلى رأسهم الزعيم محامى الطبقة الكادحة، يتحدث عنها الناس فى كل مكان، رجال الحزب يتحدثون عن العدالة وحقوق الشعب والاستغلال الضارب أطنابه، وهم يعيشون فى قصور كقصور ألف ليلة، ويستمتعون بكل ما يحلو لهم، والمخلصون من أبناء الأمة، وعلى رأسهم أعضاء جماعة «ما شومى» الإسلامية يعيشون خلف الأسوار دون تحقيق أو رعاية، والصحف والمجلات السيارة أصبحت أسيرة لرجال الحزب ، تخدم المخطط الهدام، وتسخر من القيم الدينية. وتحطم تقاليد الشعب العريقة وتنشر بين الشباب المفاهيم الفاسدة، والكثيرون من أبناء الشعب يظهرون ولاءهم للعملاء خوفًا على مستقبلهم، أو طمعًا فى اكتساب المغانم عندما ينقض الحزب ويستولى على ما تبقى من مقاليد

الأمور ، والمبشرون هم الآخرون يساندون الاتجاهات الفاسدة، ويحاولون اكتساب الأنصار ، معتمدين على عبث الحكام وتأييدهم لنشاطهم ، ومستغلين ما تحت أيديهم من أموال وسلطة ، وإذا عتب عليهم أحد رفعوا شعار « البانجاسيلا » أو المبادئ الخمسة التى تنص على احترام جميع الأديان ..

وحاجى محمد إدريس يشعر بضيق من نوع آخر مصدره ابنته فاطمة الطالبة بكلية الآداب ، لقد أتت بالأمس من الكلية محتقنة العينين ، شاحبة الوجه ، وما أن دخلت المنزل حتى انفجرت باكية ، ثم تردد فى تعاسة : « أنا مظلومة .. مظلومة يا أبتى » ..

وجاءت أمها وأخوتها وأخواتها ، الجميع فى حيرة من أمرها ثم جلست فاطمة تروى لهم ، كيف أن الجامعة أصبحت بالنسبة لها جحيمًا لا يطاق ، فألسنة السوء تنهش عرضها وتغرقها فى الشائعات ، والملصقات الصغيرة تملأ المدرج عنها ، وترميها بالفجور وسوء الأخلاق ، والمغامرات الدنيئة ، والأعين تلاحقها أينما ذهبت ، والتعليقات الماجنة تقابلها فى كل مكان ، وضحكات الهزء والسخرية لا تجعلها تفهم كلمة واحدة من الدرس ، أو تستقر بضع دقائق فى المكتبة العامة ، بل أن بعضهم قد شبك ورقة صغيرة فى مؤخرة شالها الأبيض مكتوب عليها باللغة الإنجليزية « أنا أحبك » ، وبعض الغوغائيين أخذوا يصفقون لها وهى تدلف إلى قاعة المحاضرات ، وبعد أن انتهت من حديثها قال أبوها فى أسف :

- « دعيهم يموتوا بغيظهم » .

- « أكاد أجن يا أبتى » .

- « فى كل عصر يا فتاتى حديث إفك جديد » ..

ثم أخذ يشرح لها قصة حديث الإفك التى تناولها القرآن الكريم عن

السيدة عائشة زوجة الرسول ﷺ، وكيف أن الحاقدين والمنافقين حاولوا تشويه سمعتها وسمعة النبى الأعظم ﷺ، ولكن الحقيقة ظهرت للعيان، وخسر هنالك المبطلون..

همست فاطمة فى حزن بالغ:

– «أنا ضعيفة»..

– «أنت قوية بالله»..

– «والمبادئ الفاضلة تضمحل.. تموت»..

– «لن تموت أبدًا يا فاطمة.. لأنها من صنع الله»..

– «الغوغائيون يا أبتى أصبحوا يسيطرون على قطاع كبير من عقول غالبية المجتمع»..

قال فى تحد:

– «هذا وهم يا ابنتى.. أنها مظاهر كاذبة.. تذوب وتفنى عندما تسطع عليها شمس الحقيقة اسألى أباك.. أنا أعرف.. الكذب والنفاق لا يقيمان دولة، ولا يحميان سلطة.. يجب أن تؤمنى بذلك».

صمتت فاطمة برهة، ثم قالت:

– «أليس عجيبًا يا أبتى أن يتبع ملايين البشر تلك الدعاوى الإلحادية الهدامة، أنه أمر مخيف»..

ابتسم حاجى محمد فى ثقة وقال:

– «لكل مجتمع طبيعته.. انحرف الدين وأفلس فى تلك الأصقاع..فكان البديل ما ترينه من انحراف كانت الشعوب تحلم باليقين والسلام والجنة.. فجاء الغزاة بسيوفهم ونيرانهم وعنفهم ليحملوا الناس إلى جنتهم الموعودة.. أصبح الناس هناك مغلوبين على أمرهم.. وإلا لماذا حمامات الدم، وحركات التطهير.. وآلاف السجون.. سعادة الشعوب يا فتاتى لا تقاس بصنع صاروخ جبار، أو

سفينة فضاء تحوم حول القمر .. السعادة شيء آخر .. تبدو في رضى القلب ، وابتسامة صادقة على الشفاه ، وأمن يوشح الضمائر .. وحرية ترفرف أعلامها .. سعادة الفرد هي مقياس أية حضارة .. ما قيمة الحضارة أو المدنية يا فتاتي إذا لم تنعكس على الناس كأفراد – بما يسعدهم ويجلب لهم الهناء والأمن والثقة » ..

وصمت أبوها لحظة ، وكم كانت دهشته حينما سمع فاطمة تقول :

– « أبتي » ..

– « نعم » ..

– « أريد أن أتزوج » ..

– « تتزوجين ؟؟ » ..

– « أعرف أنك قد أجلت هذا الأمر » ..

– « وقد حان الوقت » ..

– « ممن تنوين الزواج ؟؟ »

– « أبو الحسن .. زميلي في الكلية .. أنت تذكر أنه قد طلب يدي منك قبل ذلك » .

هز الأب رأسه في رضى وقال :

– « أنه من خيرة شباب « ماشومي » وقد كان شجاعًا ولا زال .. وأبوه رجل طيب برغم فقره وأنا أرحب بذلك » ..

وسادت فترة صمت ، قال أبوها بعدها :

– « أرجو ألا تكون ظروف الحملة القاسية التي تعرضت لها في الجامعة هي التي أرغمتك على الزواج » ..

قالت في صدق :

– « لا شك أن لها دخلًا في ذلك » ..

- « يجب أن تدركى أن للزواج اعتبارات أخرى » .
- « أعرف » ..
- « أعنى أن » ..
- «لقد فكرت فى الأمر جيدًا .. إن عناصر الزواج الناجح من شرعية وعاطفية متوفرة لدينا » ..
- « حسنًا .. فليوفقك الله » ..

وحاجى محمد إدريس كان من قبل مؤيدًا لزواج ابنته من « أبى الحسن » لكنه رضخ لمشيئتها حين أصرت على أن تكمل تعليما أولاً ، بل أن « أبا الحسن » نفسه لم يمانع فى ذلك ، ووجده أمرًا معقولاً لها الحق كل الحق فيه .

كانت صورة الأوضاع المتردية فى البلاد تشغل ذهن حاجى محمد ، كما أن مأساة ابنته فى الجامعة هى الأخرى تؤرقه وتثقل على قلبه بالألم والحزن العميق ، أنه يختزن فى قلبه ثورة عارمة ضد الأحوال السيئة التى يلمسها فى الشوارع والنوادى والصحف والمصالح الحكومية ، والمنظمات الحزبية وكان يفكر فى كل ذلك وهو يجلس فى أحد مساجد «جاكرتا» استعدادًا لصلاة الجمعة .. وفجاة وثبت إلى رأسه فكرة رائعة «الساكت عن الحق شيطان أخرس » ، أخذت هذه العبارة ترن فى رأسه .. يتردد صداها فى أروقة نفسه .. تطن أذنيه » ..خيل إليه أن الجالسين حوله يرددونها فى قوة .. وأن الكلمات المقدسة تجسدت فى عديد من الصور تزحم خياله وفكره .. جرت الدماء ساخنة فى عروقه .. كان جسده يرتجف لم يعد غير مواكب الصمت الحزينة المرغمة وهتافات الغوغائيين الداعرة ،

وانحناءات النفاق، وترديد الشعارات التافهة الأحرار خلف الأسوار، وكلمة الحق تداس وتسحق والأبرياء يلوثون ويضطهدون، ورئيس الدولة ينعم فى فردوس صنعته له جهود التعساء المقهورين، ومستوردو الثقافات والقيم المستعارة يمسكون بمقاليد الأمور .. الصمت خيانة يا حاجى محمد الكذب خيانة .. الاستسلام كبيرة من الكبائر .. والخوف لا يحرر شعبًا يا حاج محمد . والعمر والرزق بيد الله والعلم مسئولية كبرى، لم يعلمنا الله العلم لنغلق عليه الصدور بأقفال من الخوف والتردد والجبن .. بل لنطلقه كالأضواء الكاشفة . .

وهب حاجى محمد من مكانه .. وقصد توا إلى حيث يجلس خطيب المسجد، وهو صديق حميم له، وقال فى هدوء والعرق يندى جبينه :

– « أتسمح لى بأن أخطب الجمعة اليوم ؟ » ..

قال خطيب المسجد فى رضى :

– « بكل تأكيد .. فأنت أخى وأستاذى » ..

يا له من يوم ..

كان يتكلم من قلبه ..

وكان لكلماته صدى مهولًا فى النفوس هكذا ما خرج من القلب وصل إلى القلب، سادت المسجد ضجة كبرى، الصدق هو المجد، شعر حاجى محمد بسعادة فائقة، خيل إليه أن أثقال الشيخوخة تتساقط، وأنه يشعر بدبيب الشباب يسرى فى أوصاله .. حتى لكأنه فى سن الثلاثين .. أدرك لأول مرة أن القوة الحقيقية هى قوة الروح والقلب والفكر .. هى لا تشيخ أبدًا ..

وفى اليوم التالى نشرت إحدى الصحف الإسلامية الضيقة الانتشار ما حدث فى المسجد، وقدمت تلخيصًا غير مخل لخطبة حاجى محمد إدريس، وأخذ الناس يتناقلون ما جرى، بعض النيام يستيقظون

والناس يتحدثون حديثًا كله عجب ، وحاجى محمد يبتسم «الخير فى وفى أمتى إلى يوم القيامة .. ليس المهم الانفعال وترديد الكلام الطيب .. المهم العمل وحده هو أداة التغيير الفعلية .. لا بديل للعمل المنظم .. فكثير من الكلمات الطيبة تذهب مع الريح» .. كان حاجى محمد بعد هذه الخطبة يجلس فى حجرته وحيدًا يفكر ، ثم يجد نفسه بالرغم منه يصيح وكأنه واقف على منبر «أيها الناس تحرروا من الخوف أيها الناس تعلموا أصول دينكم عندئذ تتصاغر أمامه كافة الفلسفات المستعارة .. كلمات الله أقوى الكلمات .. لأنها الصدق الأزلى .. العراة لا يتزينون بأى زى برغم فقرهم .. أنهم يحافظون على زيهم القومى ولو كان مرقعًا .. لو لبس متسول بدلة سهرات لاجتلب على نفسه الهزء والسخرية .. نحن لا نستسيغ طعم الخنازير ، ولا نبى بعد محمد . . وابن الخطاب عاش زاهدًا متقشفًا يكفيه ما يكفى أقل فرد فى الرعية .. الملايين لا تبحث عن فلسفة جديدة بل تبحث عن رجل يعرف نفسه ويعرف شعبه .. تبحث عن رجل كعمر»



وفى اليوم التالى وقفت فاطمة فى قاعة المحاضرات تصرخ متحدية الكذب والشائعات ، وتنعى موت الضمائر وخسة القيم ، وتنادى بالحرية الحقيقة وبالصدق .. وتعلن أن «حديث الإفك» لن يغير من منهجها أو خطتها ..

وتبعها أبو الحسن ليقول : «إن الخداع والإرهاب لن يدوما إلى الأبد ، وأن الجزر الخضراء سوف تحطم التيارات الغريبة وتحافظ على أصالتها وتراثها» ..

وأخذ الناس يتساءلون عن مصير «حاجى محمد إدريس» الذى

سافر فى جولة تفتيشية على المدارس التى يشرف عليها ، وقد مضى عليه أسبوع دون أن يعود إلى بيته ..

قالت فاطمة :

– « إن أبى لن يكتفى بالتفتيش على المدارس ، فقد قرر أن يقوم بجولة توعية فى أنحاء الجزر .. وسيعود بعد فترة » ..

أما « أبو الحسن » فقد تناوبته الشكوك وعزم على الذهاب للبحث عن « حاجى محمد إدريس » ، واللحاق به أينما كان ..

قال أبو الحسن لفاطمة ، وهما خارجان من الجامعة :

– « سأرحل غدًا » ..

– « رافقتك السلامة » ..

طأطأت رأسها بعد أن نظرت إليه فى امتنان :

– « وبالطبع لن يتم زواجنا قبل العودة مع أبيك »

– « أجل » ..

– « أنا الذى أطلب التأجيل هذه المرة .. واحدة بواحدة » ..

ضحكت واحمر وجهها خجلًا ..

وبعد بضع خطوات ضحكت وقالت :

– « لا تتأخر وإلا » ..

– « ماذا ؟؟ » .

– « قد يحاول الزعيم » اختطافى كفارس أحمق ..»

بان الكدر فى عينيه وغمغم :

– « هم لا يعرفون قداسة لشيء .. أنه لا يؤمن بغير العبث .. كان يريد السيطرة عليك بأية وسيلة . أتظنين أنه كان جادًا ؟؟ »

قالت فى شيء من الغضب :

– « هو وزير .. ولكنه أتفه من أن أفكر فيه ..»

– « كان يريد قتلك بأية طريقة .. الزواج إحدى وسائله ..»

– «ولم آخذ الأمر مأخذ الجد ..»

– «أجل .. كان يمزح .. ترى كم مرة قال مثل هذا الكلام لفتيات أخريات ؟؟»

تنهدت فاطمة وقالت :

– «لشد ما أنا قلقة على أبى ! ! احذر أي أبا الحسن .. فالطريق وعر ..،المكائد مزروعة فى كل مكان .. لا يخدعنك مظهر الزهور الجميلة فى جزرنا الحبيبة .. فالحشرات السامة تملأ الغابات .. وتختفى تحت أوراق الورود الندية ..»

قال أبو الحسن بصوت يخالطه الانفعال :

– «سيضئ وجهك المؤمن ظلام الطريق لى وسيظل يسير إلى جوارى طول تجوالى .. قلبانًا يسيران معًا .. يترنمان بأنشودة صوفية رائعة .. ما أعظم الحب فى الله »

تبللت أهدابها بالدموع، وغشيتها موجة عارمة من السعادة : وهمست فى ارتجاف :

– «سأنتظرك حتى تعود ..»

أخرج مصحفًا صغيرًا من جيبه ، ومده إليها وهو يقول :

– « هدية السماء .. نعم الصاحب ..سيملأ عليك حياتك .

وعندما أعود سنبدأ فى قراءته معًا مرة أخرى ..»

تناولت كتاب الله وقبلته .. ثم ضمته على صدرها ، وانصرفت وقد ازداد تدفق دموعها ...

❋❋❋

الفصل ٥

هناك ظاهرة غريبة وجد حاجى محمد نفسه غير قادر على تفسيرها التفسير السريع الواضح، تلك الظاهرة هى الفظاظة والقسوة والوحشية العجيبة التى يتصف بها بعض المثقفين، قد يكون لآكلى لحوم البشر عذر فيما يفعلون وذلك لأنهم جهلة متخلفون لم يشرق نور الإيمان الحق فى نفوسهم، فهم يعيشون عيشة أقرب إلى الحيوان منها إلى الإنسان، أما الإنسان المثقف الذى بلغ شأوا فى العلم والفلسفة ونال قسطًا من المدنية والتحضر، كيف يكون بعد ذلك أفظع من آكلى لحوم البشر .. ؟!

فما كاد حاجى محمد إدريس ينتهى من جولته التفتيشية حتى نزل شاطئ إحدى الجزر البعيد قليلاً عن «جاكرتا»، مزمعًا أن يركب سفينة تنقله إلى الشاطئ الآخر، لقد وجد أحد البحارة يبتسم له ويرشده إلى السفينة مبحرة بعد قليل إلى غايته، وما أن ركب السفينة، حتى أخرج مصحفًا صغيرًا، وأخذ يقرأ فيه كانت الشمس تبعث بأشعتها وحرارتها وكان البحر مضطربًا بعض الشيء، وعشرات السفن تمخر العباب، بعضها يكتظ بالبشر والبعض الآخر ينوء بالمحاصيل الزراعية والبضائع، وهناك سفن تخفق فوقها رايات رسم عليها الصليب يبدو فيها الرهبان والقساوسة من بعيد، وسفن أخرى بها بعض طلبة المدارس يغنون ويمرحون، لكن حاجى محمد لاحظ أن السفينة التى يركب فيها بها عدد قليل من المسافرين برغم كبر حجمها، ترى لماذا لم تمتلئ كالعادة بالمسافرين ؟؟ لا يهم .. أن ما يفكر فيه هو أن يبلغ منزله بأقصى سرعة .. ورأى أغلب المسافرين

صامتين ، بعضهم يقرأ فى صحيفة وآخرين يتصفحون مجلة و كتابًا ، حتى طاقم السفينة من الرجال يبدو عليهم النشاط وقوة البنية وكأنهم جنود من سلاح البحرية ، لا يهم .. المهم أن يبلغ منزله .. واقترب منه أحد البحارة وقال :

– « حاجى .. أظن أنه لا مانع لديك من أن نعرج على إحدى الجزر المتطرفة بعض الشيء .. هناك بعض البضائع والرجال على موعد معنا .. لا شك أن هذا قد يسبب لك تأخرًا . ساعتين أو ثلاثة .. لكن لا حيلة لنا فى الأمر ..»

– « هذا هو خط السير ..»

هز « حاجى محمد » رأسه فى شيء من عدم الرضى وتمتم :

– « لا حيلة لنا .. المهم أن نبلغ جاكرتا فى الوقت المناسب ..»

طال الطريق، ومالت الشمس ناحية الغرب، وأدرك «حاجى محمد » أن السفينة تتجه صوب الجزيرة الوسطى معنى ذلك أن التأخير لن يكون ساعتين أو ثلاثة .. بل قد يحط الليل وهم فى الطريق ..

واستبد به الضيق وقال مزمجرًا :

– « هذا تصرف غريب منكم .. كان يجب أن أعرف الوجهة الصحيحة قبل أن تبحروا ..»

رد أحد الركاب قائلًا :

– « كف عن الحديث لأنه لا معنى لاعتراضك ..»

– « وما شأنك أنت ؟؟ »

نحى المسافر الصحيفة التى فى يده جانبًا وقال ساخرًا :

– « مم تخاف ؟؟ السمك فى البحر .. ولدينا كمية كافية من الطعام .. والضرب فى أعماق البحار متعة فريدة ..»

قال حاجى محمد :

– «هذا شانك .. أما أنا فكان يجب أن أعود فى الوقت المناسب ..»

– «قائد السفينة هو الذى يختار خط السير .. وللرياح أحكام ..»

تململ حاجى محمد فى قلق : وخفق قلبه بشدة ، أنه لا يشعر بالاطمئنان ، تلك حقيقة لا يمكن إنكارها ، ومع ذلك فقد عاد يقرأ فى كتاب الله ، واقتربت من الاتجاه المقابل سفينتان ، كانت الشمس توشك على المغيب .. وقرر حاجى محمد أمرًا ، وصاح بالبحارة :

– «لقد عزمت على ترك سفينتكم ..»

قال قائد السفينة ضاحكًا :

– «كيف ؟؟ هل تثب إلى الماء ؟»

– «بل سأدفع لكم ما تشاءون ثم أهتف بإحدى السفينتين القادمتين كى ألحق بها»

– «إنهما يسيران وجهة غير وجهتك ..»

– «ليكن .. توقف . وأعط الإشارة ..»

– «حسنًا .. أين المال ؟؟»

وضع حاجى محمد يده فى جيبه ، وأخرج حافظة النقود ، لكن لكمة قوية نزلت على فكه ، فألقت به جانبًا ، وحاول لدهشته أن ينظر ما جرى ، لكن عصا غليظة هوت على رأسه أفقدته الوعى ، وسرعان ما كمموا فاه ، وربطوا يديه من الخلف ، وقيدوا رجليه .. ثم جروه جرًا إلى الغرفة السفلى أسفل السفينة ..

قال أحد الرجال :

– «يجب أن نصل به قبل منتصف الليل ... سيكون الناس نيامًا ، وسيكون فى انتظارنا شرطة المدينة هم يعرفون ما يجب عمله ..»

ورد آخر :

– «لم كل هذا العناء ؟؟ ألم يكن فى الإمكان أن نرمى به فى أى سجن من السجون ؟»

قال الرجل الأول :

– «الأوامر هى الأوامر ، ثم إن المكان الذى نقصده به طائفة من أعضاء الحزب ، والكولونيل رتب كل شيء .. إن المكان الذى نريد لن يستطيع أحد أن يستجيب لحاجى محمد فيه .. كلهم رجالنا وسيصدرون أمرًا بسجنه بطريقة ما .. ولن يعرف أحد عنه شيئًا ..»

رد آخر قائلًا :

– «كان بالإمكان أن نخنقه ، ونلقى به فى البحر .. أو نطلق عليه الرصاصة .. كل هذا التعب لرجل تافه ؟؟ ..»

– «نحن ننفذ الأوامر فحسب .. لا شك أن للحزب وجهة نظر فى الاحتفاظ به حيًا ..»

وفى الحجرة السفلى ، أفاق حاجى محمد بعد وقت ليس بالطويل ، حاول أن يحرك يديه أو رجليه فلم يستطع ، أراد أن يتكلم فاحتبست الكلمات خلف الرباط المحكم .. أخذ يزمجر حتى احتقن وجهه ، كان الظلام يعم المكان فوق السفينة وعلى أمواج البحر الصاخب .. وكانت بالغرفة شمعة صغيرة استطاع حاجى أن يرى على ضوئها رجلين يحملان السلاح ، كان الرجلان يرمقانه فى شماتة وقحة وقال الأول :

– « . . يبدو أن محمد يريد التحدث إلينا ..»

– «لا شك .. لكنى أمقت سفسطته . سيحدثنا عن السماء .. والعدالة . والإخوة . وعن الله . وأنا لا أطيق مثل هذه الكلمات ..»

ومع ذلك فقد قدم الأول ، ونحى الرباط المحكم من فوق فم الحاجى الذى اندفع قائلًا :

– «ما معنى ذلك ؟»

ضحك قائلًا :

- «معناه أنك أسير لدينا ..»

- « هل أنتم عصابة ؟؟ ليس معى ما يغرى من المال .. ثم كيف تنتهكون حرمة شيخوختى و أنا مثل أبيكم ..»

قهقه الرجلان ، وقال الأول :

- « أنا ضابط بالقاعدة الجوية ورفيقى مهندس كهرباء ..»

قال حاجى محمد :

- «متعلمون أنتم إذن ..»

أدركا ما يرمى إليه من توبيخ فقال الأول :

- «لكننا ثوريون ..»

- «وما شأنى بذلك كله ..»

- « أنت تؤجج ثورة مضادة ..»

- « أننى لا أصدق ما تسمعه أذناى ..»

قال الضابط :

- « هل فى إمكان أية قوة أن تنقذك ؟؟ »

- «كل شيء بيد الله ..»

قال مهندس الكهرباء فى غضب :

- « أفكار العصر الحجرى تتسلط على ذهنه ..»

ثم تقدم المهندس منه ، وأمسك بخصلة من لحيته البيضاء بآلة حديدية وانتزع الشعر بقسوة ، فاهتزت رأس الحاجى الذى صدر عنه تأوه على الرغم منه .. ثم تمتم :

- «يا أبناء الوطن .. أنا لم أسئ إليكم ..»

فرد المهندس :

- «مريض واحد بالكوليرا يستطيع أن ينشر الوباء بين الملايين هذا منطق العلم يا حاجى محمد ..»

قال حاجى محمد وقد استبد به الضيق :

– «ما الذى يبرر أفعالكم الوحشية هذه ؟؟»

– «هل أنتم سلطة للدولة ؟؟ ولو افترضنا أنى متهم أهكذا يعامل المتهم ؟؟»

ودس مهندس الكهرباء يده فى جيبه، ثم أخرج منشورًا حزبيًا، وأخذ يقرأ فيها بصوت عال:

– «.. إن كل من لا يؤيد حركتنا، ولا يساعدنا هو رجعى أثيم والحل الوحيد لأمثال هؤلاء هو إبادتهم ..»

– «الديانات مصيرها الزوال، والعقائد والتقاليد القديمة فى طريقها إلى الاضمحلال، والذين يقدسون الأديان ويتشبثون بأذيالها ليسوا إلا ذوى العاهات. أو الفاشلين فى حياتهم والمنحرفين من البشر «لقد عرفنا حقيقة المسلمين، فلا تخافوهم، ولا يخيفنكم الإسلام، إن المسلمين مثلهم كمثل السراب، تراهم من بعد كثرة تحسبهم بها قوة، ولكنك عندما تكشف حقيقتهم تجدها عكس ذلك إنهم متفرقون، مختلفون، ممزقون، مزقتهم أهواؤهم، ومزقتهم مفاهيمهم الدينية المتضاربة .. والفوز والنصر لنا ..»

وأمسك المهندس بالمنشور وأخذ يمسح به وجه الشيخ ويحكه فى عينيه .. وهتف:

– «إنكم أيها المتدينون لن تروا الحقيقة أبدًا ..»

تمتم حاجى محمد وجسده يرتجف:

– «المؤمن يرى بنور الله ..»

قال المهندس:

– «والثورى يرى بنور عينيه .. الرؤية الوحيدة الصحيحة الممكنة فى عالم الواقع ..»

قال حاجى محمد:

– «ومن الذى خلق عينيك ونورهما وخلق الواقع ..»

- « الطبيعة الخالقة »
- « وما هى الطبيعة الخالقة .. ؟ »
- « هذه الدنيا الكبيرة بكل ما فيها ..»
- « لكنها مخلوقة .. فمن خلقها ؟؟ »
- « هى خلقت نفسها ..»
- « أليس هذا قولاً مضحكًا .. يشبه إلى حد كبير قولك إنك ولدت من بطن أمك مهندسًا ..»

أمسك آلته الحديدية ، وقبض على شعر كثيف فى لحية الشيخ ونزعها فى عنف وهو يهتف :

- « يا لسخافة أفكاركم !! »

قال حاجى محمد وهو يتألم :

- « أهذا هو أسلوب متمدين للنقاش ..»
- « لا رأى للعفن الرجعى ..»

ثم سدد قبضة قوية إلى فك الحاجى مرة ثانية وهو يقول :

- « لا أريد أن أسمع هذا الصوت القذر ..»

الليل حالك السواد ، والسفينة ترسو على شاطئ مهجور صامت ، ولدى الشاطئ وقفت عربة « جيب » ، وحمل حاجى محمد إليها حملاً ، ثم قذف به فيها ودار المحرك ، وانطلقت عبر الظلام إلى سجن يقع بعيدًا منعزلاً خارج المدينة .. وحوله الأسوار والأسلاك الشائكة والحراس والكلاب .. ووجد حاجى محمد نفسه أخيرًا فى حجرة ضيقة قذرة ، كان مربوط العينين ، ولم يكن ألمه إلا لأنهم انتزعوا منه المصحف قبل إدخاله إلى زنزانته ...

❁❁❁

الفصل ٦

الساعات تمر بطيئة ثقيلة، ككابوس مزعج يتمنى صاحبه أن يفيق منه، وأشياء مريبة تحدث في الزنازين المجاورة، لا يستطيع حاجي محمد إدريس أن يراها الغموض من حوله يجسم الأوهام، ويضخم الأحزان، أنه يسمع أصوات استغاثة ولا مغيث، وصراخ رجال يجأرون بالشكوى، غير أن أنينهم يختلط بالسخريات والضحكات العابثة، كل شيء يمضي بطريقة مذهلة لا يمكن تفسيرها، والليل يبدو كمغارة سوداء تكتظ بالأهوال والرعب والآلام والصراخ.. «أهذه هي بلادنا الحبيبة ؟؟ مستحيل يا بلدي الحبيب لن تكون كذلك . أن ما أراه حالة شاذة بالتأكيد.. كنوبات الهستيريا التي تصيب مرضى العقول والنفوس.. وكيف يقرب النوم جفون المعذبين ؟؟ هنا لا شك حكومة سرية غير الحكومة التي يعرفها الناس، والسلطة الحقيقية مختفية خلف ستار من البلاهة والزيف..

هذا ما كان حاجي محمد يحدث به نفسه.. وتحسس الجدران الصلبة.. والأرض الباردة.. فلم يجد شيئًا على الإطلاق.. لا ماء ولا طعام.. أنه يشعر بالظمأ . وتذكر الكلمات التي كان يسبح بها «ذا النون» وهو في بطن الحوت كما ورد في القرآن، وأخذ حاجي محمد يردد كلمات «ذا النون». ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أخذ يسبح بها آلاف المرات.. آه.. لا شك أن أسرته في جاكرتا اللاهية العابثة تبحث عنه الآن، وتسأل المسافرين عن رجل لم يعد.. وسيظلون يسألون حتى يرهقهم السؤال ويضنيهم البحث، فيكظمون أساهم، ويلجأون إلى الدموع.. ولا شك أن فاطمة المسكينة

قد عافت الأكل والنوم .. وستهرول إلى مركز الشرطة، وتقدم بلاغًا عن اختفاء أبيها، وسيكتفى الضابط بإرسال نشرة تبين أوصاف المفقود، وتضع صورته عليها، بعد أن يتقاضى ثمن النشرة، وقد تتكرم إحدى الصحف الإسلامية الصغيرة بنشر نبأ اختفائه فى زاوية صغيرة من زواياها .. إن حاجى محمد يعانى آلامًا مرة فى هذا السجن الغريب، وهو يسمع أنات المستغيثين فتزداد آلامه، وقبيل الفجر يفتح الباب ويعاد إحكام ربط عينيه، ثم يساق حاجى محمد خارج الزنزانة، الهواء بارد رطب .. وهدير البحر ينبعث كغضبة مكبوتة .. ويجره السجان جرًا عنيفًا حتى يكاد ينكفئ .. أحيانًا يجره من يده .. أو يدفعه فى ظهره . أو يسحبه من أذنه .. معاملة مهينة .. وهو صامت يمضى فى طريقه يتعثر .. لا يدرى هل ستقع قدمه فى حفرة، أو يصطدم وجهه بجدار .. أنه يحاول أن يرى بأذنيه .. يتسمع الهمسات ووقع الأقدام ويحاول أن يفهم .. وفجأة يشعر بركلة قوية تقذفه على وجهه .. ويهتف فى وهن :

– «الرحمة ..»

لكن سوطًا يهوى على رأسه وجسده، لم يعد حاجى يشعر بآلام جسدية .. جلده أصبح كالمخدر .. لو قطعوا ذراعه أو شقوا بطنه بسكين لما شعر بآلام تذكر .. هنا تصبح الحياة تافهة لا قيمة لها .. لحظات يبدو فيها الأمل فى النجاة صفرًا ..

وسمع صوتًا أجش يقول :

– «ارفعوا العصابة عن عينيه ..»

نظر فرأى مهندس الكهرباء، وضابط قاعدة الطيران وثالثًا يبدو أنه قائد السجن، كان الأولان منكبين على طعام يزدردانه فى شراهة، وأمامهما زجاجة كاملة من الويسكى، وقال قائد السجن وهو يجلس

على مكتب أنيق، تعلوه صورة الرئيس:
- «ليس لدينا وقت ..»
لم يجب حاجى محمد، بينما استطرد القائد الأسمر:
- «إن استجوابك معناه إننا نريد الإبقاء على حياتك»
- «لم أرتكب جرمًا»
قال القائد فى ضيق:
- «هل أنت من جماعة «ماشومى الإسلامية؟»
- «يا ولدى جماعة ماشومى يتبعها الملايين فى أنحاء البلاد ..»
- «أفهم من ذلك إنك ترد بالإيجاب؟».
- «نعم .. أنا أحد أعضائها ..»
- «حسنًا .. نريد أن نعرف شيئًا عن نشاطكم السرى، وما تحوزونه من سلاح .. تكلم يا حاجى محمد .»
قال حاجى محمد وقد تبللت عيناه بالدموع:
- «لم أحمل السلاح منذ حربنا مع الهولنديين .»
قال القائد ساخرًا:
- «تريد أن توهمنا أنك كنت أحد المجاهدين الأبطال ..».
- «الحقيقة إننى كنت كذلك قبل أن يتقدم بى العمر. والسجلات تشهد به ... ولدى وسام من الحكومة .. ولى مواقف مشهودة .»
هب الضابط واقفًا، ثم صفع حاجة محمد قائلاً:
- «هذا لا ينفى أنك رجعى خطير ..»
دارت رأس حاجى محمد وهتف:
- «ما معنى رجعى ؟؟»
اقترب منه وقال:
- «رجعى يعنى متخلف .. ضد التطور .. يعنى ثورة مضادة .. أو

عميل الامبريالية والاستعمار .. ألا تقرأ الصحف ؟ »

– « ليس بى شىء من هذا كله .. فأنا رجل أحب العلم والتقدم ، وأريد لبلدى الحرية والعدل ... والمواطنون جميعًا إخوة .. فى ظل شريعة الله ..»

صرخ قائد السجن قائلاً :

– « قف ..»

– « تلك هى الحقيقة ..»

– « كذبت ..»

– « وليس لى أو لجماعة « ماشومى » أى نشاط سرى .. وليس فى منزلى قطعة واحدة من السلاح ..»

– « كذبت ..»

– « أثبتوا غير ذلك ..»

– « أتنكر أنك تهاجمنا فى الشارع .. ومن فوق المنابر ..»

– « ومن أنتم ؟ الحكومة ؟؟ »

– « نحن أكبر من ذلك .. نحن قوى الشعب الحقيقية الممثلة لإرادة الجماهير ..»

قال حاجى محمد فى توسل :

– « يا ولدى الأمور لا تسير هكذا .. أريد أن تحاسبنى فى قانون معروف يظهر ما لى وما على وأريد أن يكون لى الكفالة التى ينص عليها الدستور .. لأنه كما يبدو لا توجد تهمة ذات قيمة موجهة إلى ..»

كز القائد على أسنانه :

أيها الحيوان المنقرض :

– « لم تلوكون هذه العبارات التى لا مدلول لها ؟؟ »

– « خسأت ..»

غامت عينا حاجى محمد إدريس بالدموع وقال :

– «عن رب العزة قول رسول الله ﷺ : يا عبادى .. إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا .. فلا تظالموا ..»

قهقه الرجال الثلاثة ، وقال مهندس الكهرباء :

– «أيها العالم المتدين .. أتعرف شيئًا عن قانون الصراع ؟؟»

– «أعرف أن صراع الحق والباطل دائم ما دامت الحياة ..»

– «وما نتيجة هذا الصراع ؟؟»

– «يقول الله فى كتابه : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ .. ﴾ »

– «وأنت ؟؟ زبد .. أم نفع .. ؟»

– «أنا أحمل الكلمة الطيبة . وأحب الناس .. ولا أؤذى أحدًا إلا الحشرات الضارة ..»

وسادت فترة صمت قال حاجى محمد بعدها :

– «أشعر بالظمأ ..»

قال ضابط القاعدة :

– «ستشرب من ماء زمزم ..»

تذكر حاجى محمد يوم أن ذهب إلى مكة ، مئات الألوف يتدافعون إلى الحرم الآمن .. إلى الكعبة .. والحمام يطير ، والأكف تضرع إلى السماء .. والناس من كل لون وجنس .. والابتهالات والتكبيرات تشق عنان السماء .. يا لها من لحظات خالدة شجية .. نسى حاجى محمد نفسه . نسى الرجال الثلاثة .. والسوط .. وآلة انتزاع الشعر .. نسى كلمات المحقق الجوفاء .. خيل إليه أنه قابع عند «مقام إبراهيم» والحشود تطوف حول الكعبة .. والسقاة يأتون بالماء العذب من زمزم .. وخيل إليه أنه تناول إبريقًا وأخذ يشرب .. ويشرب حتى ارتوى ، ودون أن يشعر أخذ يردد «لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك

لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك . ..»

وقف قائد السجن ، وأمسك بكتف حاجى محمد وصاح به :

– «لم لا تجيب ؟ ماذا تقول ؟ هل جننت ؟»

أفاق حاجى من شروده وقال :

– «البقاء لله وحده»

قال مهندس الكهرباء وكان قبل ذلك قد رفع العصابة عن عينى الشيخ :

– «هل رأيت الله ؟؟»

قال حاجى محمد فى ثقة :

– «نعم رأيته ..»

– «رأيته فى بديع خلقه ، وفى تنسيق ملكه ، وفى عظيم سننه التى تسير الكون ، وتحرك الأفلاك ، وتنظم البحار والرياح .. وكل شيء يدل عليه سبحانه ..»

قهقه المهندس قائلًا :

– «كلمات بلا معنى ..»

سدد إليه حاجى محمد نظرات ثابتة وقال :

– «أنت أيضًا رأيت الله ..»

وقف مهندس الكهرباء وقال :

– «متى ؟؟»

– «ما هو تيار الكهرباء الذى يسير فى الأسلاك ..»

– «أنت لم تخلق التيار ، ولكنك اكتشفته واستنفدت منه ..»

– «اكتشفت شيئًا كان موجودًا أو مخلوقًا منذ الأزل ..»

– «لكنى لم أر الله ..»

– «لأنك أعمى ..»

أمطرت السماء ورعدت ، وأكفهر وجه الرجال الثلاثة ، قام قائد

السجن ، وأحضر قلمًا وأوراقًا ، وقال لحاجى محمد :

– «خذ هذه الأوراق والقلم .. نريد منك أن تكتب قصة حياتك السياسية والدينية من البداية للنهاية .. لا تهمل أى شيء مهما كان تافهًا ..»

أمسك الورق بيد مرتجفة ، وقال :

– «صدقونى يا أبنائى .. إن أمركم لجد عجيب .. وأنا لا أفهم مبررًا لكل ما يحدث ..»

– «يجب أن تنفذ ما تؤمر به وإلا دفعت حياتك ..»

– «أنا لا أخاف الموت ..»

– «لا يهم .. ستمل الحياة أكثر وأكثر ما دمت هنا ..»

ثم التفت قائد السجن يمينًا ويسارًا وقال وهو يشير بسوطه :

– «هذا المكان يعج بالآلاف من إخوانك أعضاء «ماشومى» ثم التفت إلى السجان قائلاً :

– «اعصبوا عينيه وخذوه إلى زنزانته .. وأضيئوا له شمعة وما أن انصرف حاجى محمد ، حتى التفت قائد السجن إلى رفيقه وقال :

– «ابلغوا الزعيم أن الأمور تسير على ما يرام .. وسنوافيه باعترافات الرجل فى خلال ثلاثة أيام .. وسنبقى على حياته كما أمر ..» .

❁❁❁

الفصل ٧

وجاكرتا مدينة عجيبة، فيها القصور الفخمة ذات السجاجيد العجمية الغالية الثمن، والثريات المذهلة والنسق الهندسى الرائع، تحوطها الحدائق الجميلة ذات الأزهار والثمار، وفيها أيضًا الأحياء الفقيرة تفوح منها رائحة القذارة والمرض والفقر، والأطفال العراة الحفاة، والنسوة الممزقات الثياب، والعيون الغائرة المقرحة الجفون، وفيها من لا يجدون عملًا فيتسكعون فى الشوارع يشاركون الكلاب فى فرز القمامات، وفى جاكرتا أحزاب عدة تتصارع على السلطة، وتتسابق إلى أصوات الناخبين التعساء، وفيها الجماعات التبشيرية النشطة التى تملك المدارس والمستشفيات والأرز والدقيق والمال والكتب، تتحرك فى حرية تامة، وتصدر النشرات المليئة بالافتراءات الدينية، والأكاذيب التاريخية، وتقيم احتفالات التنصير علانية، وتوزع المعونات الغذائية والكساء على من تشاء لمن يناصرونها أو يعتنقون المسيحية، وفى جاكرتا أحياء شامخة شوارعها تلمع كالمرآة المجلوة، وفيها الأماكن المليئة بالأوحال والقاذورات والكلاب والقطط الميتة.

عادت فاطمة من الجامعة شاحبة الوجه، شاردة النظرات، متعبة أن أباها لم يعد، وكذلك فتاها أبو الحسن لم يظهر له أثر، ودخلت فاطمة إلى البيت، ها هى أمها تجلس كابية حزينة يطل من نظراتها الرعب والأسى، وها هم أخوتها وأخواتها الخمسة، يطبق عليهم الصمت والأسف، وتلك مكتبة أبيها تتراص فيها مجلدات الكتب والمجلات باردة غير عابئة بشيء، وتلك السجاجيد الرخيصة المتآكلة

تغطى الأرض، وعلى الحائط الباهت تقويم بالسنين والشهور والأيام وإلى جواره القرآن الكريم كله فى صفحة واحدة فى برواز خشبى أحمر يغطيها زجاج مترب، وفى الجانب الآخر خريطة لفلسطين قبل التقسيم قالت فاطمة فى اكتئاب :

– « هذه بلاد لا يأمن فيها المرء على نفسها ..»

قالت أمها :

– « وما ذنب البلاد ؟؟ الذنب ذنب أهلها » .

– « لا معنى للوطن بلا أمن أو حرية ..» .

– « هو كذلك . ..» .

قالت فاطمة وهى تعبث بضفيرة شعرها فى توتر :

– «لم لا نرحل عن هذه الأرض ؟ » .

– «لكنها أرضنا يا فتاتى .. عاش أجدادنا فيها من قرون ..» .

– «لم يعد للحياة معنى هنا ..» .

– « وأين نذهب يا ابنتى ؟؟ » .

– « بلاد الله واسعة ..» .

تنهدت أمها وقالت :

– « استغفرى الله يا فاطمة ، وقومى إلى الصلاة » .

تساقطت الدموع من عينى فاطمة ، وقالت والدموع تملأ عينيها :

– «لشد ما أحب بلادى يا أمى .. لكن أبى و .. لم يعودا .. أصبحت أضيق ذرعًا بكل ما أراه فى الشارع والحوانيت والجامعة .. نحن أشد الناس تعاسة .. الحاكم لا يحمى أحدًا والشرطة لا توفر الأمن ولا كرامة لأحد ..» .

ربتت أمها على ظهرها فى حنان وأخذت تبث فى قلبها الصبر والإيمان ، وتروى لها كيف أن الدنيا هكذا ، ليست حلوة المذاق دائمًا ،

وليست مرة المذاق باستمرار ، أيام كثيرة مرت كلها هناء وسعادة ، وأيام أخرى كانت تطفح بالقلق والحزن ، والإنسان بين اليسر والعسر ، والغنى والفاقة ، وأخذت أمها تروى ذكرياتها أيام الاستعمار الهولندى والمعارك الوحشية التى كان يخوضها ضد المواطنين العزل أو شبه العزل من السلاح ، ثم كيف دخلت اليابان ، وطردت الهولنديين واحتلت البلاد ، والحرب الضروس بين الهولنديين واليابانيين فى البر والبحر ، وكيف كان الشعب يناضل كل الغزاة من أجل حريته واستقلاله ، ثم كيف عادت هولندا بعد سنوات وطردت اليابانيين .. وكيف ابتدأت حرب التحرير الأخيرة ، والتى اشترك أبوها فيها ، وأخيرًا قالت الأم :

– « ليس من العدل يا فتاتى أن يصدر حكمًا على الأمور من خلال فترة قصيرة من الزمن ، نحن نجتاز أحداثًا مؤقتة .. » .

قالت فاطمة :

– « هذا حق .. لكن العملاء قد تمكنوا وأنشبوا أظافرهم فى كل شيء .. أصبحوا هم الحكومة الفعلية للبلاد .. أنهم أخطر من الهولنديين واليابانيين مجتمعين .. تلك هى الحقيقة التعسة .. » .

ثم أخذت فاطمة تجفف دموعها وتقول :

– « ترى متى يعود أبى ؟ » .

قالت الأم :

– « قلبى يحدثنى بأنه سيعود قريبًا .. أذكر فى حرب التحرير ضد الهولنديين أن أنباء أكيدة وصلتنا بأن أباك قد استشهد فى معركة ضارية فى « جاوا » الوسطى .. تسعون فى المائة من رجاله لقوا مصرعهم .. وعاد أحدهم يحمل إلينا حقيبة الذكريات .. مخلفات والدك الشهيد .. وهى بعض الملابس ومصحفًا .. ومفكرة صغير

للمذكرات . بكيت يومها كثيراً وأنت كنت طفلة صغيرة .. وعلى الرغم من بكائى إلا أننى استقبلت نبأ استشهاده بالزغاريد .. كان شعار المعركة «الله أكبر» .. كان الشعب الحقيقى يحمل البنادق والمدافع والمدى يطارد الأعداء ..،كان العملاء يكتبون المنشورات الجوفاء عن حقوق الطبقة .. أبوك يذكر كل ذلك .. ثم ماذا حدث ؟؟ كنت آخذ كل مساء باقة من الزهور وأذهب بها إلى المقبرة الكبيرة .. لكن أباك عاد ذات مساء .. أجل .. لم أكن بالبيت . كنت وقتئذ أترك المقابر فى طريقى إلى البيت ، وفجأة وجدته أمامى .. خيل إلى أننى فى حلم .. أهذا أنت يا محمد؟ فتحت ذراعى أهو لقاء فى الجنة ؟ أم لم نزل على الأرض ؟» .

نسيت فاطمة وهى تستمع لكلمات أمها ، تخيلت المشهد بكل دقائقه ، ابتسمت فاطمة فى سعادة ، على الرغم من بقايا دموع تتعلق بأهدابها الجميلة ..

وتنهدت الأم ثانية وقالت فى شجن :

– «هكذا عاد ..»

وفى هذه اللحظات دق باب البيت ، وثبت فاطمة من مكانها وجرت صوب الباب ومن حولها كل أفراد الأسرة ، تجمهروا متشوقين فى انتظار المجهول .. ...

كان «أبو الحسن» يقف بالباب مرهقًا مكدودًا .. «السلام عليكم» .

وردوا السلام فى وجوم ، وهمست فاطمة :

– «أين أبى ؟» .

أطرق دون أن يجيب ..

– «تكلم .. هل أصابه مكروه ؟»

- « لا أدرى ماذا أقول » ..

- « أخبرنا بالحقيقة .. لم يزل بنا بقية من إيمان » ..

- «لم أعثر له على أثر .. قالوا أنه عاد إلى جاكرتا .. وها هى جاكرتا كالسوق الكبير ..

لا نسمع فيها غير الدوى والضجيج وجنون المذياع .. واختلاط أصوات الباعة .. ونباح الكلاب » .

قالت الأم فى وجوم :

- « أدخل يا بنى .. يجب أن تستريح وتشرب بعض الشاى الساخن » ..

لم يعد « أبو الحسن » بشيء يذكر ، لقد زار الأماكن التى ذهب إليها حاجى محمد وأخذ يتتبع خط سيره ، حتى اللحظة التى ركب فيها حاجى محمد إحدى السفن الصغيرة ، وبعدها انقطع الخيط ، لم يعرف شيئًا عن صاحب السفينة ولا وجهتها ..

وكان واضحًا لدى الجميع أن وراء اختفاء الرجل تدبيرًا سياسيًا من نوع معين ، فالخلافات السياسية فى الآونة الأخيرة قد اتخذت طابع العنف والقسوة ، لم يكن حاجى محمد أول من اختطف ، ولن يكون آخرهم ، إن فى العاصمة وحدها أكثر من ألف مفقود بين قتيل وسجين ، ونفس الظاهرة تكررت فى كثير من المدن ، أصبحت أمرًا مقلقًا لدرجة أن بعض الصحف تكلمت عنه ، والبعض الآخر أورد قائمة بالمفقودين ، وتحدث عن القضية أحد أعضاء المجلس الاستشارى الأعلى فى الدولة ، بل زعم البعض أن أحد الجنرالات المعتدلين قد تكلم شخصيًا مع الرئيس ، ولم يكن لذلك من رد فعل لقضية المفقودين أو المعتقلين حماية لأمن الدولة ومصلحتها العليا ، وما أكثر فلاسفة الانحراف فى تلك الآونة ، والبعض يقول أن قضية أفراد قلائل لا تهم ،

ماذا لو ضحى الوطن بألف أو بضعة آلاف من أجل مصلحة الملايين، كل شيء يضطرب ويفقد اتزانه، هذا ما كان يفكر فيه أبو الحسن وهو جالس زائغ النظرات يجرع كوب الشاى الساخن.

– «لم أيأس بعد»

هذا ما قاله أبو الحسن، دون أن يغمض جفنيه على نظراته الشاردة .. ثم استطرد:

– «القسوة لا تلد إلا القسوة .. نعم .. والظلم يورث الحقد، ويا ويح شعبنا إذا ابتدأ نزيف الدم!! إننى كنت أمضى فى الشارع أتفحص العيون والوجوه .. ماذا أرى ؟؟ يا إلهى!! المآسى الثاقبة فى النظرات .. وعلى الملامح قصص مهولة لأحزان طافحة».

لم يتكلم أحد فى البيت، كان الجميع صامتين يتخلل صمتهم حيرة وغيظ مكبوت، ثم رفعت الأم كفيها إلى السماء وتمتمت:

– «لن نشكو إلا إليك أنت .. أنت رب المستضعفين».

وعاد أبو الحسن يقول:

– «أشعر أن مصيرنا بيد غيرنا .. وأن أمتنا الكبيرة حقل للتجارب البشعة .. الزعماء كعرائس المسرح .. تحركها خيوط خفية .. فى قصر الرئيس الليلة حفل راقص .. هذا ما قرأته فى الصحف .. الرئيس لا يستحى ويتحدث عن زوجته الفاتنة قائلاً:

(إننى أحكم مائة مليون نسمة من شعبة، ولكننى لا أستطيع الاستيلاء عليك) هذا هو المضحك المبكى»

ثم وقف مكفهر الوجه، وقال فى هياج:

– «إنه لشيء رهيب أن يقتل رجل من أجل فكرة»

قالت فاطمة فى ذعر:

– «هل قتلوه ؟؟»

– «اهدئى يا عزيزتى، فأنا لم أقل ذلك .. أعنى أنهم قتلوا الكثيرين – إذا كان من الموت، فليمت الإنسان فى ميدان مكشوف، لا لقصد استعراضًا أو دعاية، ولكن ليرى الناس .. إعلان الكفاح يحرك الجماهير .. يشعل نار الحماس فى قلوبهم .. الموت خلف الأسوار أنة خافتة .. لكن الموت فى الميدان صرخة مدوية .. هذا ما أعتقده .. حينما أنظر إلى الأحداث أشعر أننا ننحدر .. إلى هاوية سحيقة».

وساد الصمت من جديد ..

وشحت الظلمة البيت .. لم يفكر أحد فى إضاءة النور ..

وتتسلل أبو الحسن خارجًا .. يجب أن يعود إلى ذويه .. لا شك أنهم قلقون عليه، ولم لا يقلقون عليه ؟؟ ألم يكن واحدًا من شباب «ماشومى» المرموقين؟؟ وأبوه مريض .. وأمه مسكينة لا تكاد تعرف شيئًا يذكر عن السياسة ودهاليزها ..

❁❁❁

الفصل ٨

اضطربت أمور الأسرة فى بيت حاجى محمد إدريس وسادها توتر متصل ، وأخذ الخيرون من الناس يتوافدون على البيت مواسين ، وقد تكون المأساة المعلقة أشد إثارة ، وأكبر تأثيرًا على النفوس ، لكن أمرًا حدث فشد الانتباه ، ففى صباح يوم مطير وجدت فاطمة تحت الباب رسالة موجزة ، أخذت تقرأها فى انفعال : « حاجى محمد إدريس يناشدكم الرحمة ، ويطلب التوسط عاجلًا لإخراجه من محبسه ، أنه يقاسى أشد صنوف البلاء ، لا تدخروا وسعًا فى إنقاذه ، من الأفضل الاتصال بشخصية كبيرة فى الحزب ، فهم وحدهم القادرون على تحريره مما يعانى من العذاب »

وأخذ أفراد الأسرة يتناقلون الرسالة ويقرأونها فى إمعان ، واشترك معهم أبو الحسن ، وأخذوا يتدارسون الموقف ، وقال قائل : « فلنحمل هذه الرسالة إلى الشرطة » ورد آخر : « الشرطة لا فائدة منها » وقالت فاطمة :

– « لم لا أذهب إلى مقابلة الرئيس نفسه ، أننى لم أفقد الأمل فيه كلية » ..

لو يوافق أبو الحسن على هذه الفكرة ، وأردف :

– « لن تستطيعى الوصول إليه ، إن حرسه الخاص – بعد إشاعة محاولة اغتياله – لا يسمح بمثل هذه المقابلات » وهنا تدخلت الأم قائلة :

– « ولماذا تذهبون بعيدًا ؟؟ إن الرسالة نفسها حددت خط السير ، رجال الحزب هم الذين يستطيعون معاونته » ..

زمجر أبو الحسن فى غضب :

– « أنذال » .

ثم شرد لحظات وقال :

– « عندى فكرة » ..

قالوا فى صوت واحد :

– « ما هى ؟؟ »

– « أن نخف رجلاً ذا شأن فى الحزب ونساوم به ؟ »

قالت فاطمة فى شبه يأس :

– « كيف نختطفه ؟ وإلى أين نذهب به ؟ إنك بذلك تعرض نفسك كما تعرض أبى للمخاطر ، إن إمكانياتنا بالنسبة للأعداء لا تعد شيئًا ذا قيمة .. أتجهلهم وقد ساقونا جميعًا نساء ورجالاً إلى السجن وانهالوا علينا تعذيبًا وتمزيقًا .. إنها فكرة جنونية » ..

ثم تركوا الأمر وأخذوا يتساءلون عمن أوصل هذه الرسالة الغامضة ، ولماذا لم يكتبها الأب بخط يده ؟ إنها لا شك صادرة من المكان الذى أسر فيه الأب ، قد يكون أحد الرجال الطيبين قد تطوع بكتابتها أو لعله أحد السجانين أخذته موجة عطف نحو الرجل العجوز ، فكتبها تلبية لرجائه ، لكن لماذا يعذبون الرجل ، ولا يحترمون شيخوخته ؟؟

ولمعت فى ذهن فاطمة فكرة ، قالت ووجهها يشرق بالأمل الواثق المتحدى :

– « سوف أذهب إليه » .

وتطلعت العيون إليها فى شغف فى طلب المزيد من التوضيح قالت فاطمة وهى تبتسم :

– « سأقابل الزعيم » .

صرخ أبو الحسن فى غيظ :
– « مستحيل » .
احتقن وجهها وهتفت فى إصرار :
– « لن أترك أبى للعذاب والموت » ..
– « اهدئى يا فاطمة .. فالرجل ناعم الملمس كالثعبان ..
– « سأطرق كل باب من أجل أبى ..»
– « إذن سآتى معك » .
– « بل سأذهب وحدى يا أبا الحسن » ..
قال الشاب فى ضيق :
– « أتقدمين نفسك وليمة للذئاب .» ..
– « لن أكون إلا سمًا فى حلوقهم » ..

اختلفت الآراء وتضاربت ، وكان أبو الحسن أكثر المتحدثين رفضًا للفكرة ، لأنه لا يثق فى الزعيم ، ولأنه يؤمن أنهم سوف يتشفون ويعبثون ، بل ربما ينكرون القضية أساسًا فى هذه الأيام العصيبة ، إذ ليسوا من البلاهة بحيث يدينون أنفسهم علانية أمام أعضاء من جماعة « ماشومى » ، وأبو الحسن يرى أن رجال الحزب كانوا وراء حادث اختفاء حاجى محمد ، فلن يتركوه إلا بالطريقة التى تروق لهم ، وفى الوقت الذى يناسبهم ، أو لعلهم يلفقون له الآن تهمة من نوع جديد ، أو يلصقون به مؤامرةمن صنع خيالهم لاغتيال الرئيس حتى يسبغوا الشرعية على اعتقاله ووضعه تحت رحمة المحققين ، لأنهم ليسوا من الغباء بحيث يتركون الفرصة لأعدائهم كى يشنعوا عليهم ..

وأخيرًا قالت فاطمة لأبى الحسن :

– « حسنًا .. أنت تكره الزعيم وأنا أكرهه ، لكن القضية ليست هكذا .. القضية هى إنقاذ أبى .. فلننح الانفعالات جانبًا .. لننس

الحرب والكراهية الآن .. هذا عين الصواب » ..

ولم تدخر «فاطمة» وسعًا فى اليوم التالى، أخذت تبحث عن الزعيم فى كل مكان، ذهبت إليه فى مقر وزارته أخيرًا، وكان موجودًا هناك، وانتظرت أكثر من ثلاث ساعات دون فائدة، قالوا لها أن الوزير فى مقابلة هامة مع أحد السفراء الأجانب ولا يمكنه مقابلة أحد اليوم، ثم أخذوا اسمها وعنوانها، وطلبوا منها الانصراف على أمل الاتصال بها فى الوقت المناسب .. وذهبت فى اليوم التالى مساء إلى مقر الحزب، لقد رأت سيارته واقفة بالباب، لكن الجميع أنكروا وجوده، كانوا ينظرون إليها وإلى ملابسها كأنها إنسان هبط من المريخ لتوه، وبعضهم كان يسخر منها، وضاقت فاطمة ذرعًا بالانتظار وشرحت الأمر لإحدى صديقاتها المقربات، فقالت لها إنها تعرف امرأة فى المنظمة اسمها «جميلة»، وقد يمكن الإفادة منها .. وخاصة أن جميلة وزوجها عضوان بارزان فى الحزب . . حينما ذهبت فاطمة للقاء جميلة، كانت وحدها، استقبلتها بنظرات فيها التوجس، والشك، ليكن أى شيء، إن ما يهم فاطمة هو أبوها .. ولا أحد غيره، وهى على استعداد لتقبل أى شيء فى سبيل خلاصه .. كانت جميلة عصبية تكثر من الحديث وترديد الشعارات، تواكبها عنجهية ظاهرة لا مبرر لها، وكانت حولاء مخيفة النظرات، توحى لمن يراها بالكراهية والخوف، وبعد أن سمعت جميلة قصة الاختفاء كاملة قالت فى خبث :

– «لقد سمعت هذه القصة قبل ذلك، ولا أجد فيها دليلاً واحدًا يؤيد ظنونك فى أن رجالنا اختطفوه» فأخرجت فاطمة الرسالة الموجزة، وقدمتها لها .. وبعد أن قرأتها قالت :

– «حتى هذه أيضًا لا تعتبر دليلاً » ..

- « أختاه .. إننى أتوسل إليك » ..
- « لكن أمر كهذا بالغ الصعوبة » ..
- « إنها مساعدة إنسانية » ..

قالت جميلة فى صفاقة :

- « إن مساعدتى لأحد الرجعيين تسئ إلى سمعتى » ..
- « لكنه برئ ..»
- « مجرد وجهة نظر قد لا يتفق معك فيها الكثيرون ..»

وابتلعت جميلة ريقها وقالت فى شيء من الارتباك :

- « ثم أن الأمر يحتاج لنفقات باهظة .. أعنى لابد من السفر إلى هنا وهناك .. والتحرى الدقيق .. والبحث عن مكانه ..»

أدركت فاطمة ما ترمى إليه جميلة ، إنها رشوة مقنعة .. حسنًا ..

قالت فاطمة :

- « هذا لا يهم .. إننى أعرف ذلك جيدًا ..»
- « ألديك ثلاثة آلاف روبية ..»

دهشت فاطمة ، فالمبلغ بالنسبة لها كبير ، لكنها على استعداد لأن تبيع ملابسها لو اقتضى الأمر لإنقاذ أبيها ، وقالت وهى تطاطئ رأسها فى استسلام :

- « اتفقنا ..»

ولم تضيع فاطمة الوقت سدى ، فقد جمعت كل ما فى البيت من ذهب بسيط وباعته ، وبحثت عن بعض الأثاث الجيد والتحف القديمة وذهبت بها إلى السوق ، واقتضى الأمر أيضًا أن تستدين بعض أموال من الأقارب والأصدقاء ، وباعتها لأحد تجار الكتب القديمة ..

وعلقت أمها قائلة :

– « المال يذهب ويجئ .. أنا لا آسف على شيء .. المهم أن يعود الغائب المسكين ..»

وشعرت فاطمة بارتياح كبير بعد أن قدمت « لجميلة » ألفي من الروبيات الأندونيسية ، على أمل دفع الباقى فى أقرب فرصة ، ولم تعترض جميلة ..

اختفى أبو الحسن ثلاثة أيام كاملة بعد أن أخذ « الرسالة » المجهولة من فاطمة ، لم يكن يداوم على عمله فى الكلية ، ولم يعثر له أحد على أثر فى البيت ، وعاد أبو الحسن بعد الأيام الثلاثة وقال لفاطمة :

– « سوف أقلب الدنيا ..»

– « حذار أن تتورط فى عمل عشوائى ..»

هز رأسه دون أن يعلق ، وفى اليوم التالى كانت صور حاجى محمد إدريس تملأ جدران الكلية ، وإلى جوارها صورة بالزنكوغراف للرسالة التى أرسلها مجهول لأهله ، ووزع فى نفس الوقت منشورات ضد الحزب متهمًا إياه بالغدر وخطف الأبرياء ، وتدبير المكائد ضد المواطنين الشرفاء الأحرار ، وحدثت ضجة كبرى ، ووقف « أبو الحسن » أمام مكبر للصوت وألقى كلمة ملتهبة مهدت الطرق إلى هياج بالغ ، أدى إلى الاصطدام بالأيدى بين أنصار الحزب وأنصار جماعة ماشومى ، وأسفر عنه بعض الإصابات الطفيفة ، وسرعان ما جاءت الشرطة وألقت القبض على عدد غير قليل من الطلبة والطالبات ، وقد لوحظ فى المساء أن جميع المنتسبين للحزب قد صدر أمر بالإفراج عنهم فورًا بعد تحقيق شكلى موجز ، وبقى الآخرون فى المخفر رهن التحقيق والاستجواب ..

وسأل المحقق « أبا الحسن » :

– « أنت متهم بالتحريض على الفتنة، وما ترتب على ذلك من فوضى وإصابات ».

– « لم أقصد إلا أن أقدم صورة صادقة لما يجرى من مظالم وسط طائفة المثقفين ..»

– « ليس هذا هو الطريق القانونى الذى تسلكه ..»

– « أخطرنا الشرطة .. أرسلنا شكوى للرئيس .. ودفعنا الرشوة لأقطاب الحزب .. ماذا نفعل بعد ذلك لإنقاذ الرجل ؟ »

قال المحقق وهو يسدد إليه نظرات غاضبة :

– « التحرى يحتاج إلى وقت وقضية اختفاء حاجى محمد بين أيدينا » وأنت لن تفلت من العقاب ثم ما هى الرشوة التى تتحدث عنها ؟ »

وشرح أبو الحسن كل شيء، وعند استدعاء « جميلة » أنكرت الأمر كلية وقالت فى حدة :

– « إن ذلك جزء من المخطط الرجعى القذر لتشويه سمعة الحزب فى البلاد .. نحن وجه الشعب المشرف .. وأنا أحتج بكل شدة على هذه الافتراءات القذرة ..»

وقدم أبو الحسن « الرسالة » للمحققين، فلوى أحدهم شفته السفلى فى ازدراء وقال :

– « هذه الورقة لا قيمة لها ..»

أسقطها فى يد « أبى الحسن »، وصدر أمر بوضعه فى السجن المركزى رهن المحاكمة.. وذهبت فاطمة إلى « جميلة »، وما أن رأتها حتى صرخت فى حدة :

– « اذهبى إلى الجحيم .. لقد أتلفتم كل شيء بحماقتكم ..»

– « لكن ..»

قاطعتها جميلة قائلة : –

– « إذا لم تذهبى ، فسأستدعى الشرطة ..»

وصفقت الباب ، وتركت فاطمة واقفة تحت الظلام والمطر وعيناها تذرفان الدموع السخية ..

وفى اليوم التالى كانت فاطمة تروح وتجيء قرب قصر – الزعيم لقد أصرت على لقائه مهما كان الأمر ، هى تعرف أن حرس القصر يقفون كالصقور ، ومع ذلك فقد استطاعت ألا تلفت النظر إليها خلال الفترة القصيرة التى قضتها فى الانتظار ، وما أن رأته خارجًا من قصره ، والحرس يحيط به حتى صاحت بأعلى صوتها وهى تقترب منه :

– « أيها الزعيم أريد مقابلتك ..»

نظر إليها بدهشة ، لم يزايله هدوءه ، بينما جرى الحراس ومسكوا بها ، وهى تصيح :

– « لا تدعهم يمسكون بى .. يجب أن تسمعنى ..»

ابتسم فى برود ،ومضى فى خطى ثابتة صوب باب السيارة المفتوحة ، وانطلق دون أن يعيرها أدنى أهتمام .. قالت وهى تنشج نسيجًا عاليًا :

– « أيها الطاغية .. يا من لا تعرف الرحمة ..»

ورنت على فمها صفعة قوية جعلت الدماء تسيل من فمها ، قالت والدماء تنقط شالها الأبيض :

– « أيتها الوحوش .. لابد وأن الله سينتقم منكم ..»

ثم جروها إلى كشك خشبى صغير قريب من البيت ، نظرت حولها فلم تر غير الوجوه الكالحة القاسية ، والنظرات الحاقدة ..

– « دعونى أذهب إلى بيتى ..»

- « سوف نرمى بك خلف الأسوار مع القاتلات والسارقات ..»

وظهرت أمام الكشك الخشبى امرأة عليها مسحة من جمال ، تلبس الفاخر من الثياب ، وتفوح من أردانها رائحة ذكية ، فأفسح لها الجميع الطريق وهم يغمغمون :

- « السيدة »

واحنت رأسها فى ابتسامة صافية وهمست :

- « معذرة .. هيا معى ..»

قال قائد الحرس :

- « لكن .. المفروض أن نسلمها للشرطة ..»

- « لا شأن لك ..»

دخلت السيدة وإلى جوارها فاطمة .. القصر رحب ، حلو القسمات ، تملؤه الزهور واللوحات الزيتية ، وصور للزعماء والرئيس تتوسطهم صورة الزعيم .. والثياب المعلقة تبهر الأنظار ، والخدم نساء ورجالاً يتحركون فى أدب ورقة ، لا يجرؤ أحدهم على أن يلقى نظرة على ما يجرى ..

- « يا إلهى .. إن قصرك يا سيدتى جميل .. رائع ..»

- « عيناك أجمل من كل شيء ..»

كانت فاطمة متوترة مرهقة ، تكاد تجن ، والأحداث المتوالية تضغط على أعصابها ، وهمست فى شرود :

- « أخذوا أبى ..»

- « من أبوك ؟ ! »

- « وسجنوا خطيبى ..»

- « لا أفهم شيئًا ..»

- والزعيم رفض مقابلتى ..

- « اهدئى .. واحكى لى عن كل شيء ..»

- « بعنا كل ما نملك .. الحياة أصبحت ممقوتة .. كلها عذاب .. أشعر بضياع قاتل .. لم كل هذا ؟؟ ثم انتابتها موجة البكاء ..»

كانت السيدة تربت على ظهرها فى حنان، وأشارت إلى إحدى الخادمات ثم صبت لها كأسا وقالت :

- « اشربى يا فتاة ..»

نظرت فاطمة بعيون ممتلئة بالدموع وقالت فى رعب :

- « حاشا لله .. لا أشرب الخمر ..»

- « لماذا ؟؟ »

- « لأنها حرام ..»

ضحكت السيدة، لم ترغمها على الشرب، واستطاعت أن تهدئ روعها وتعرف قصتها كاملة، وأخيرًا هزت رأسها وقالت :

- « أنا لا أرتاح لأمثال أبيك .. ومع ذلك فسأحاول مساعدتك .. هذا وعد ..»

الشمس مشرقة، وعيون فاطمة يحرقها العذاب والاحتقان، وضحكت فاطمة .. ضحكت لأنها تركب «سيارة» فاخرة، أصرت السيدة أن توصلها إلى بيتها .. وتطلعت عبر زجاج السيارة إلى العراة فى شوارع جاكرتا ..

ثم أطرقت صامتة ..

❁❁❁

الفصل ٩

– « أنا « جاريفودين » هل أدخل ؟؟ »

قاسته المرأة بنظراتها ، شكله غير مريح على أية حال ، عيناه تبعثان على المقت والضيق والخوف أيضًا ، شاربه منسق ضئيل شأن أولئك المعقدين نفسيًا والذين يحاولون أن يضفوا على نفسهم شيئًا من القوة والجمال والكبرياء .. وغمغمت المرأة قائلة :

– « جاريفودين ؟؟ من أنت ؟ »

– « ضابط الاستخبارات .. ومكلف بالبحث عن زوجك .. أليس هذا بيت حاجى محمد إدريس ؟؟ »

هزت رأسها فى شيء غير قليل من الاستخفاف وهمست :

– « تفضل ..»

وبعد أن استرخى على مقعد قديم ، قال فى نفور :

– « أين ابنتك ؟؟ »

واستأذنت لتوقظ الفتاة ، بينما أخذ «جاريفودين» يلقى نظرة شاملة على ما حوله ، هذه لرجل فى زى الحرب القديم معلقة على الحائط ، تمتم : « لا شك إنها صورة حاجى محمد » وهذه آية قرآنية مكتوبة بخط يد عربى ، لم يستطع الضابط أن يقرأها ، لكنه فهم أنها بالأحرف العربية ، وغمغم :

– «نعم .. مكتوب فى الملف الخاص به أنه يقرأ العربية ويكتبها ..»

وهناك أيضًا بعض الخناجر والسيوف الأثرية تتدلى على الحائط ، وهز الضابط رأسه معلقًا بينه وبين نفسه : « ويؤمن أيضًا بالقوة » ثم

أضاف : «لكنى لا أجد صورة للرئيس ، إن لذلك دلالة واضحة لا تخفى على ذى عقل يفكر بعمق » .

وبعد دقائق عادت الأم وابنتها ، كان الوقت حوالى العاشرة صباحًا ، واليوم يوم الجمعة ، وليس فى البيت سواهما ، كانت فاطمة تنظر إلى الرجل فى اهتمام .. وقالت فى لهفة :

– « هل عثرتم على أبى ؟؟ »

قال الضابط فى خبث :

– «نحن فى مسيس الحاجة إليه أكثر منكم .. لقد جلب على رؤوسنا صداعًا لا يطاق ..»

وفتح « جاريفودين » دفترًا كبيرًا ، وهو يقول :

– «بعض الأسئلة التى لابد منها .. إنها فى صالحكم على أية حال ، فضلت أن آتى بنفسى ، حتى لا أسبب لكم مزيدًا من المتاعب .. حسنًا ..»

وران صمت قصير ، قال « جاريفودين » بعدها :

– « هل كان بينه وبين أحد من جماعة «ماشمى» عداء ؟؟ »

قالت فاطمة فى دهشة :

– «تقول عداء ؟ »

– «نعم ..»

– « أنه أحد أعضائها ..»

ابتسم الضابط فى دهاء ، ثم أردف :

– « أعرف ..»

– «كان أبى رجلًا صالحًا متسامحًا لا يعادى أحدًا .. وتوجيه النقد ، والتعبير عن الرأى لا يعنيان العداء لأحد »

– « أنا أسأل عن أعدائه فى جماعة «ماشومى» الإسلامية بالذات »

– « أيها الضابط .. أنا لا أفهم ما ترمى إليه ..»

أشعل « جاريفودين » سيجارة ، ثم قال :

– «حسنًا .. تعرفين يا فاطمة أن الجماعات السياسية يدب بين أعضائها كثير من الخلاف .. حتى بين أخلص الخلصاء منهم .. حسنًا .. أبوك كما نعرف من ملفاته ، وكما تقولين أنت ، صاحب رأى ، وجرئ فى نقده .. ألا يحتمل أن يكون الخلاف قد دب بينه وبين بعض زعماء « ماشومى » ؟؟

قالت فاطمة وهى تهز كتفيها فى دهشة :

– « لا أظن ذلك ؟؟ »

– « هل أنت متأكدة ؟؟ »

– «كل التأكيد ..»

قال « جاريفودين » ، وعيناه نصف مغمضتين والسخرية تشيع فى نظراته المقيتة :

– « أبوك يا آنسة خطفه مسلحون من «ماشومى »

على الرغم منها ضحكت فاطمة .. ضحكت بطريقة أغضبت الضابط ، الذى قال وقد احتقن وجهه :

– « ما معنى ذلك ؟؟ »

جرت فاطمة ، وأحضرت القصاصة التى أرسلها أبوها يستنجد بواسطة أحد الذين عطفوا عليه .. ونظر الضابط إلى الورقة ثم زم شفته دون اكتراث وقال :

– «قد تكون هذه الورقة مرسلة من قبل «ماشومى » للتضليل .. أنا أعرفهم جيدًا ..»

لم تشترك الأم فى الحديث كانت تجلس مهمومة لا تتكلم ، والدموع

توشك أن تنبثق من عينيها ، أما فاطمة فقد أدركت على الفور أن فى الأمر خدعة ، فأجهزة الأمن تحاول أن تتنصل من القضية بعد أن شاع أمرها ، وتحدث الناس عنها فى كل مكان ، وتريد أجهزة الأمن أن تدين منظمة «ماشومى» المغضوب عليها من السلطات وتصور المنظمة بصورة العصابات المتناحرة التى لا تحسن التصرف ، ويمزق الخلاف أعضاءها ، وتنعدم الثقة بين رجالها ، وتحاول أن تضم المنظمة بالإرهاب والتعسف الذى تمارسه ضد الحاكم وضد المخالفين لها فى الرأى بل وضد أفرادها أنفسهم ، كما تسعى سلطات الأمن جاهدة ، أن تبعد الشبهة عن رجال الحزب لأمر ما ، وعن الحكومة أيضًا ..

وعاد جاريفودين يقول :

– « إن نظرتى للأمور أشمل وأعمق ، سترين أننى كنت على حق ، لكن بعد فوات الأوان ..»

فى معتقله البعيد كان « حاجى محمد إدريس » يقاسى العناء ألوانًا كان يضربونه على الرغم من شيخوخته ووهن صحته ، وكانوا يكيلون له السخريات ، وهى أشق على نفسه من ضرب السياط ، وفى الأوقات القليلة التى يفرغ فيها لنفسه داخل الزنزانة المظلمة يجلس متجهًا ناحية القبلة ، فيقرأ ما حفظ من آيات القرآن ، ويردد الدعاء وعيناه مخضلتان بالدموع ، ويطيل الركوع والسجود ، وكان بين آونة وأخرى يرفع يديه وعينه إلى السماء ويقول «يا إلهى .. إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى » ، وعلى الرغم من العنف البالغ الذى مارسه قائد

السجن ، إلا أن بعض السجانة كانوا يشعرون بآلام نفسية حادة ، وتانيب شديد للضمير ، وهم يشاركون فى اللعبة القذرة بأمر رؤسائهم .. وفى بعض الأحيان كان بعضهم يتسلل تحت جنح الظلام قبيل الفجر ، حيث الجميع نيام ، ويفتح باب الزنزانة ، وينكب على يدى السجين العجوز ، ويشبعها لثمًا وتقبيلًا وهو يقول :

– « أعذرنى يا شيخى .. فنحن ننفذ الأوامر ، وقلوبنا تتمزق .. إليك الماء .. والطعام .. وغطاء إضافيًا .. إننى على استعداد أن أفعل أى شيء شريطة ألا يعلم رؤسائى بالأمر ..»

ويغمغم حاجى محمد باسمًا :

– « ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ..﴾ » أنت يا ولدى مؤمن ، لكن الظلمة يكرهونك على فعل الشر .. وأنا أدعو لك بالخلاص .. فأنت سجين مثلى .. سجين لخطايا غيرك .. وسوف يحررك الله من أسار العبيد ..»

وهكذا تطوع أحد الجنود وأرسل الرسالة إلى أهل حاجى محمد يخبرهم بحقيقة الوضع فى سطور قليلة مقتضبة .. واستطاع أحدهم أن يهمس فى أذن « حاجى محمد » بما حدث ..

وغمغم حاجى محمد :

– « الظلام الدامس يلف الوجود .. لكن الله يخترق الحجب ويضئ بأشعته السحرية الخالدة التى يخطئها عميان البصيرة .. واليأس يوشح الكائنات .. لكن الأمل يخفق فى قلوب المؤمنين ..»

وكان قد طلب من « حاجى محمد » أن يكتب قصة حياته كاملة ، فأطاع الأمر ، وكتب كل ما يتذكره ، وعندما قرأها قائد السجن ، استدعاه ، وقال فى ضيق :

– « إن ثلاثة أرباع ما كتبت عن الحرب ضد الهولنديين .. أتريد أن توهمنا بأنك بطل ؟؟ »

– « معذرة أيها القائد .. فأنا عبد ضعيف من عباد الله ، ولا أمن بجهادى .. فالثواب عند الله ، ولكنى نفذت ما طلبته منى .. »

قال القائد فى حنق :

– « أنتم تزيفون التاريخ »

– « نحن ؟؟ »

– « أجل ، وتسرقون أمجاد غيركم .. »

– « الأمجاد لا تسرق ، وخاصة إذا كان الناس يعرفون الحقيقة المسجلة فى الوثائق .. ما زال أبطال الحرب أحياء .. »

هب القائد واقفًا ، وسأل :

– « من أجل أى شيء كنت تحارب ؟ »

– « جهادًا فى سبيل الله .. »

قال القائد فى امتعاض :

– « ما دام الله قويًا ، فهو ليس فى حاجة إلى جهادكم .. »

– « لكنه أمرنا به .. »

– « الأبطال الحقيقيون هم الذين يحاربون من أجل تحرير أنفسهم وتحرير أراضيهم .. »

– « المجاهد الحق ، هو من حرر نفسه من الوهم والخوف والشرك قبل أن ينزل إلى ميدان القتال .. »

– « سفسطة فارغة .. »

– « والحرب لا تكون جهادًا إلا إذا كان هدفها إعلاء كلمة الله .. عندئذ يسعد الناس بالحرية والكرامة والأمن .. كلمة الله هى العدل .. »

سكت القائد مفكرًا ، ثم قال :

- « وكنت عضوًا فى جماعة ماشومى ؟ »
- « أجل ..»
- « وجماعة ماشومى فى قفص الاتهام ..»
- « أعرف إنكم وضعتموهم فيه ..»
- « حتى نحمى الوطن من الفساد والرجعية والعمالة ..»
ابتسم حاجى محمد قائلًا :
- « العمالة ..»
- « نعم .. عملاء .. وأنت كذلك ، إنك لم تقدم تفسيرًا مقنعًا لسفرك للخارج ..»
ضحك حاجى محمد وقال :
- « أريد أن أعرف العالم ، وأستفيد ..»
رد القائد ساخرًا :
- « تستفيد ، أم تقبض الثمن من المخابرات الأجنبية ..»
- « هل وجدتم فى بيتى نقودًا تذكر ؟؟ »
وابتلع حاجى محمد ريقه وقال :
- « لست عميلًا لهذه الدولة ، ولا ذنبًا لتلك .. أنا محسوب على الله .. أنا محسوب على الله ..»
وشعر حاجى محمد بكف ثقيلة تهوى على وجهه فجأة ، فنظر إلى القائد فى أسى وقال :
- « سامحك الله ..»
- « كلما أبعدتك عن الحديث عن الله عدت إليه ثانية ..»
- « أنه حبيبى ..»
- « فليخرجك من هذا المكان إذن ..»
- « بالتأكيد ..»

– « متى ؟؟ »

– « عندما يشاء .. يَسأل ولا يُسأل .. سبحانه »

ولم يستطع القائد أن يتكلم ، واستطرد حاجى محمد قائلاً ، وعيناه تطوفان بالنجوم الساطعة فى السماء :

– « أنه معى .. معى دائمًا .. أناجيه .. وأضرع إليه ..»

وحدث أمر آخر غريب ، فقد شهق أحد السجانة الواقفين باكيًا ، فنظر إليه القائد فى اندهاش وصاح :

– «خذوا هذا الجندى إلى السجن العسكرى .. جردوه من سلاحه .. حالاً .. حالاً »

وجمد الجنود لحظات وقد شحبت وجوههم ، وعاد القائد يصيح فى جنون :

– «خذوه .. خذوه ..»

وسرعان ما أمسكوا بالجندى ، وساقوه إلى الخارج .. كان العرق يتصبب على جبين القائد ، وعاد ينظر إلى حاجى محمد الذى وقف صامتًا هادئًا .. كان وجهه يشع بنور حقيقى .. وكانت هامته ترتفع .. وترتفع .. أو هكذا خيل إلى القائد المخمور .. حتى بدأ حاجى محمد كفارس أسطورى يهبط من السحاب ، ووضع القائد يديه فوق عينيه وصاح :

– «خذوه هو الآخر إلى زنزانته ..»

وعاد القائد بعد أن صار وحده يدق المنضدة بقبضة متشنجة ويقول وهو يكاد يبكى :

– « أنا لا أفهم .. لا أفهم .. يا له من عذاب !! »

❋❋❋

الفصل ١٠

عاد الزعيم إلى بيته بعد غيبة طالت خمسة أيام كان يقوم خلالها بجولة فى أنحاء البلاد، وكان المقصود بالزيارة المراكز الرئيسية للحزب فى الجزر، وذهب إلى كثير من المدن .. إلخ، وألقى خلال هذه الجولة أكثر من عشرين خطبة، وعقد مئات الاجتماعات، ووزع الأوامر السرية الخاصة بالحزب ومستقبله، ووعدهم بتوزيع الكثير من السلاح عليهم فى أقرب فرصة، وأكد لهم أن أحداثًا هامة قد تجد فى أول أكتوبر أو قبله بقليل، كان الزعيم يثق بنفسه، وبمخططه ثقة لا حد لها، والحق يقال أن عوامل النجاح كانت متوفرة أمام عينيه، فقد استطاع أن يضم إلى صفة الرئيس نفسه، ووزير خارجيته، ورئيس الاستخبارات العامة، ونائب رئيس الوزراء، وهناك الكثيرون من الوزراء ورجال الأعلام، وأعداد كبيرة من ضباط الجيش والشرطة والحرس الجمهورى وسلاح الطيران والبحرية والقوات البرية، إلى جانب أن الكثيرين من أعداء الحزب هم الآن فى السجن، ومنهم رؤساء تحرير الصحف، وزعماء الطلبة، وقادة الأحزاب السياسية والدينية المناوئة، كما اتفق مع المسئولين فى إرسال بعثات عسكرية ودبلوماسية إلى الخارج، اختير أفرادها ممن يؤمنون بمبادئ الحزب وسياسته .. كل شيء معد تمامًا ولا مجال للخوف أو التردد.

حين عاد «الزعيم»، كانت زوجته تجلس فى انتظاره، الساعة الآن الحادية عشرة مساء إلا قليلًا .. وهى تتألق فى ثوبها الحريرى الأخاذ، عيناها تشرقان فى سعادة، استقبلته فاتحة ذراعيها وهمست فى نعومة:

- «لشد ما اشتقت إليك»
ضمها إليه فى قوة وقال :
- « هذا رائع .. لقد كانت ملايين الأذرع تتلقفنى طوال السفر ..»
- « أنا غيرهم .. إن أذرع النساء غير الرجال ..»
قال معابثًا :
- «كان فى المستقبلين نساء كثيرات»
- « اللعنة عليهن ..»
- « لماذا ؟؟ نحن مجرد رفاق مخلصين»
- « أنا أغار من أية امرأة ..»
- « أننى سعيد بحبك ..»
قالت شاردة :
- « عندما تكون الرجل الأول فى هذه البلاد ، أتعتقد أننى سأكون المرأة الأولى ؟؟»
طبع على خدها قبلة عجلى وقال :
- «بالتأكيد يا حبيبتى .. فقد جمعنا الحب والمبدأ على درب واحد من سنين طويلة ..»
- « أخاف أن تكون مثل الرئيس الذى ألف كتابًا يدافع فيه عن حقوق المرأة ، لكنه فى نفس الوقت تزوج عددًا كبيرًا من النساء .. صدقنى .. أنا أكره هذا الرجل ..»
تناول الزعيم كأسًا شربها دفعة واحدة ، وهو يضحك سعيدًا ، وغمغم فى سخرية :
- «كان فى إمكانه أن يستمتع بمن يشاء منهن دون زواج ..»
ثم ربت على كتفها وقال :
- «حذار من هذا الكلام يا حبيبتى .. الرجل صديق حميم لنا .. وما

هكذا يكون الكلام عن الأصدقاء »

كانت الزوجة متأججة الشوق، مشغوفة بلقاء زوجها، وكان حماسها يبدو جليًا واضحًا، ومع ذلك فقد أخذ يتثاءب ويتمطى، مما أثار حفيظتها عليه، وقالت غاضبة :

– « أتنام ؟؟ »

– « أعتقد ذلك »

– « ما معنى ذلك ؟؟ »

– « معناه يا حبيبتى أنى متعب »

نظرت إليه فى غيظ وقالت :

– « بل معناه أنك استنفدت طاقتك بين أحضان العاهرات فى المدن والقرى ..»

قال وهو يخلع بدلته، ويرتدى ملابسه المنزلية :

– « إنها مسألة فسيولوجية بحتة .. فعندما يجوع الإنسان لابد أن يأكل .. فى أى مكان .. ولابد أن يسد جوعه بأى طعام .. المعدة لا ترحم .. والجنس أيضًا مثل ذلك تمامًا ..»

قالت وهى تصر على أسنانها فى غيظ :

– « إذن فأنت تعترف ..»

– « لم أعترف بشيء .. ولكننى أقول حتى لو حدث ما تزعمين فإنه يجب ألا يثر حافظتك لهذه الدرجة ..»

قالت وسحابة من الأسى تطوف على جبينها :

– « إنك تطعننى فى أعز ما أملك »

تمتم فى ضيق :

– « هذا الحديث لا يروق لى »

رمقته بنظرة حزينة، فاستطرد :

– « أنت المتفردة بقلبى ، حتى ولو كان لى كل يوم خليلة ..»

– « هذا المنطق الكسيح ينفرنى منك ..»

صرخ فيها

نظرت إليه فى تحد :

– « ماذا تريد ؟ »

– « يجب أن تصمتى .. إن عقلى مشغول بأمور كبار .. إما أن نكون أو لا نكون ..»

وتناول الزعيم وجبة خفيفة من الطعام وكأسين أو ثلاثة وهو شارد ، وقال :

– « بالعنف وحده تحسم الأمور ..»

– « ماذا تقصد ؟؟ »

– « ولا يصح أن نترك للعدو ثغرة ينفذ من خلالها ..»

وذهب إلى دورة المياه ثم عاد يقول :

– « طاب مساؤك »

هل تعرف معنى تلك الكلمة ، لسوف تنام إذن فى غرفتها الخاصة ، وينام هو فى غرفته الأخرى ، وذهبت إلى سريرها فى كدر ، لماذا فى هذه الأيام بالذات تشعر بالقلق البالغ ، وتشك أكثر وأكثر فى سلوك زوجها .. فى الماضى كانت تراه يراقص الجميلات ، ويداعب الصبايا الحسان ، ويقبل بعضهن ، وأحيانًا تسمع أنه يزور نساء مشهورات من بين الفنانات مقابل أن يفتح لهن الطريق إلى شاشة السينما أو كاميرا التلفزيون ، أو ميكروفون الإذاعة ، أو بلاط صاحبة الجلالة الصحافة ، لم تكن لتكترث كثيرًا بما تسمعه ، فماذا جرى لها فى هذه الأيام بالذات ؟؟ أصبحت لا تطيق رؤية أو سماع شيء من هذا القبيل .. مفاهيمها

التقدمية الجزئية الخاصة بمسألة الرجل والمرأة تتداعى .. أصبحت فى نظرها تافهة لا قيمة لها ، شعور الملكية الفردية يتسلل إليها ، اصبحت تؤمن بأن زوجها يجب أن يكون لها وحدها ، وأصبحت تؤمن بأن يكون لها بيت خاص تملكه مفروش بأفخر الأثاث ، وأصبحت تتشبث بأغلى الثياب والجواهر وإن تنافى ذلك مع كونها رائدة أصيلة ، وأصبحت تنظر إلى الخدم على أنهم كائنات أخرى غيرها وغير زوجها .. هذا ما تحسه بالضبط، وأن كان كلامها فى المجتمعات ، ومقالاتها فى الصحف ، وأحاديثها فى الراديو أو التليفزيون تقول كلامًا آخر غير ذلك .. كان الزعيم يغط فى نوم عميق وكانت هى تعانى من الأرق والعذاب والملل .. وفكرت .. ماذا تفعل ؟؟ لماذا لا تنطلق وتستمتع بحياتها كما يستمتع زوجها ؟؟

وتذكرت أن إحدى صديقاتها فى المجتمع الراقى كانت قد دعتها إلى حفلة فى هذا المساء بالذات .. وبدون إبطاء أسرعت إلى التليفون ، كانت تسمع من خلال السماعة الضحكات المختلطة بأنغام الموسيقى « حسنًا » عزيزتى .. سوف أحضر الحفل .. سوف آتى إليك حالاً »

وأغلقت التليفون ، ثم دقت الجرس مستدعية الخادمة ..

– « أخبرى السائق أن يعد السيارة .. سوف أنزل فى خلال ربع ساعة .. بسرعة كانت الحفلة صاخبة ، ورقصت ، كما لم ترقص من قبل ، وتقلبت بين أحضان المدعوين ، وأفرطت فى الشراب حتى سكرت تمامًا ، كانت تمضى وكأنها فى حلم بويهمى مسحور، تساقطت كل نوازع الخوف والقلق والصراع تحت قدميها ، كانت تغمغم « الجنس وظيفة .. ظاهرة فسيولوجية .. عندما يجوع الإنسان يأكل فى أى مكان .. أى طعام .. أننى أشعر بجوع قاتل ..»

وهناك حجرات خافتة الضوء .. لا تكاد تبين فيها ملامح الوجوه، كل شيء يغشيه الغموض الجميل والرؤى الساحرة، والأحلام البهيجة .. ولم تفق إلا ظهر اليوم التالي .. كانت تشعر بصداع شديد .. وتلفتت حواليها .. السكارى نائمون هنا وهناك .. عرايا أو أنصاف عرايا نساء ورجالاً .. لا قيمة لشيء .. وتذكرت الزعيم، وقالت وقد انفجرت باكية وهي تخاطب مجهولاً :

– «هل رأيت أيها الأحمق كيف سارت الأمور ؟؟ إنها فلسفتك العمياء .. أنا مظلومة .. مظلومة ..»

في هذا الصباح كاد الزعيم يجن حينما لم يجد زوجته، لقد علم أنها خرجت حوالي منتصف الليل، ولم تخبر أحدًا بمكانها، واستطاع أن يعرف أن أحد السائقين قد صحبها ولم يعد هو الآخر، وغمغم في غيظ :

– «كيف تخرج دون أن تخبرني .. أنه أمر شائن .. لا أرضاه لنفسي .. قد أرضاه للآخرين .. لكن الزعامة لها مواصفات خاصة، هذه المجنونة سوف تحطم كبريائي وسمعتي ..»

وبقي في البيت يروح ويجئ كمجنون، يصرخ بالخدم ويرفض الطعام، ويقبل على الشراب بشراهة، ثم وثبت إلى ذهنه فكرة، وقام على الفور واتصل برئيس استخبارات الحزب، وطلب منه البحث عن سيارته رقم « .....»، ويكفي أن يعرف مكانها، ثم يخبره بها لا أكثر، كان رئيس الاستخبارات ذكيًا، فاستطاع بسرعة أن يحصر الأماكن التي يحتمل أن يكون للزعيم أو زوجه صلات خاصة بها وبعد ساعة واحدة جاءته الأنباء ..

– «السيارة يا سيدي الزعيم موجودة في شارع دفوينقورو أمام منزل نائب الرئيس ووزير الخارجية ..»

دب قلبه رعبًا ، ثم قال باقتضاب : « شكرًا » وعاد يقطع غرفة الصالون جيئة وذهابًا ويغمغم :

– « فى هذا الوكر القذر » وفى مسكن وزير الخارجية بالذات عميلى الرخيص الذى ألعب به كما أشاء ، وأحركه كقطعة الشطرنج ؟؟ هذا مستحيل ..»

وقرر أن ينزل إليها بنفسه ، ويجرها من شعرها مهما كان الأمر ، لكن الباب يفتح .. وتدخل زوجته شاحبة الوجه ، محتقنة العينين ، مهوشة الشعر ، كالمائدة عقب أن هجرها الآكلون ، لم تستطع أن تواجه نظراته الملتهبة ، وهمت بالذهاب إلى حجرتها ، لكنه اندفع صوبها كالسهم ، وأمسك بذراعها هاتفًا :

– « أين كنت ؟؟ »

قالت وهى تحاول التماسك ، وتتصنع عدم الاهتمام :

– « فى حفلة ..»

– « ولم لا تخبرينى ؟ »

– « كنت نائمًا ..»

– « وفى هذا البيت بالذات ؟؟ »

– « ألم تذهب إليه كل أسبوع ؟؟ »

– « لكنه بالنسبة لك أمر آخر ..»

– « لا شيء فى ذلك ..»

ودوت على وجهها صفعة قوية أودعها كل ثورته وحنقه ، وضعت يدها مكان الصفعة ، ونظرت إليه بعينين غائمتين وقالت بصوت متحشرج :

– « آسفة يا حضرة الزعيم ..»

– « ماذا جرى هناك ؟؟ »

– «كما يجرى دائمًا .. شربنا ورقصنا .. وكانت الموسيقى تعزف»

هز رأسه فى حيرة وقال :

– «لقد أصبحت أنت أكبر عقبة فى طريقى ..»

قالت فى هدوء غريب :

– «طلقنى ..»

صرخ فى هستيريا :

– «قلت طلقنى ..»

– «كيف تجرؤين على قولها ..»

– «أنا أرفض الظلم .. أنت ترضى لنفسك ما لا ترضاه لغيرك ..»

– «هل جننت ..»

– «لقد ضقت بإهمالك لى ..»

– «لم لا تلتمسين لى عذرًا ؟؟»

هزت كتفيها فى ازدراء وقالت :

– «لى حق الحياة الكاملة ..»

– «نحن فى وقت عصيب يجب أن نتجنب فيه الفضائح ، والصحف لن ترحمنى ..»

قالت فى غيظ :

– «أنت لا تفكر إلا فى نفسك ومستقبلك السياسى ..»

– «لأنه مستقبلنا جميعًا ..»

لقد كانت مندهشة لسرعة هدوئه ، وضبطه لأعصابه فى هذه الحادثة ، ومع ذلك فإن دهشتها لم تطل ، كانت تعرف جيدًا أخلاق زوجها ، فهو يستطيع أن يتحكم فى أعصابه فى أحرج اللحظات ، بل إن الإهانة قد توجه إليه ، لكنه يتجاهلها ولا يعجل بالثأر لنفسه ،

وكانت تعلم أن زوجها على وشك أن يقوم بعمل كبير ، ومن ثم فلن تفلت أعصابه أو يرتكب أية حماقة فى حقها ، قالت :

- « أريد أن أستريح ..»

وذهلت إذ سمعته يقول :

- « يجب أن ننسى ما حدث كلية ..»

نظرت إليه ، فوجدته يبتسم ، ثم يقبل نحوها ويقبلها ويغمغم :

- « آسف يا حبيبتى ..»

❁❁❁

الفصل ١١

شعر أبو الحسن بغير قليل من الحزن وهو يتذكر «فاطمة»، أدرك أنها ضرورة له كالماء والهواء والطعام، وأنها فوق ذلك كله تشكل جزءًا من روحه وكيانه، وتبين له مدى عمق حبه الكثير لها وتناوبته الوساوس، أيمكن أن تنصرف عنه، ويتعلق قلبها بغيره ؟؟ أنه لشيء مهول أو حدث، وضحك من نفسه، وهذه الخواطر المتضاربة تعبث بفؤاده، ماذا جرى له ؟؟ لا شك أن الأيام الحالكة السوداء التى عاشها قبل اعتقاله رهن التحقيق، والتى يقضيها الآن رهن المحاكمة قد أثرت على أعصابه فأفقدته التوازن، وخاصة أنه يسجن لأول مرة، التجربة جديدة ومثيرة، لكنها مؤلمة ومحزنة بكل ما تحمل الكلمات من معنى.

وهناك خاطر آخر يلح عليه ويسبب له كثيرًا من الأرق، أنه يفكر الآن فيما فعله، لقد طبع بعض المنشورات والملصقات، ثم ألقى كلمات ملتهبة .. هذا كل ما فى الأمر، فماذا كانت النتيجة ؟؟ أنه الآن مقدم للمحاكمة، وتلقى العديد من الإهانات .. صفعات على قفاه .. ركلات فى بطنه ومؤخرته .. بصقات فى وجهه .. احتقار كامل من ضباط الاستخبارات .. لقد شعر آنذاك بتفاهته، وتفاهة العمل الذى قام به، كان ما فعله مجرد نوبة صراع لم تبدل شيئًا فى الأوضاع القائمة الفاسدة، ولم ترجع حاجى محمد إلى بيته، ولم تقض على سيطرة رجال الحزب وتحكمهم وطغيانهم .. إن الأمر أعمق من ذلك وأخطر، فهو يحتاج إلى تفكير عميق .. يحتاج إلى ضبط الانفعالات، وتحويل الحركات الهستيرية الانفعالية إلى خطة عمل منظم .. لا يهم الوقت،

النتيجة هى الأهم.. ونحن فى عصر واع يسيطر عليه العلم والتخطيط.. أما الخطب الطنانة، والمظاهرات الصاخبة، والمنشورات الملتهبة الكلمات، فإنها ذات تأثير وقتى، مجرد تفريغ لشحنات هادرة فى الهواء دون الاستفادة منها على الوجه الصحيح، العدو ينسق وينظم ويضبط إيقاعه، ويرسم خطواته، ويدعم مواقعه فى كل اتجاه لكن أبا الحسن .. تصرف بحماقة، تصرف كما لو كان يقول للأعداء : ها أنذا .. تعالوا أننى ساخط علكم، وأننى أنوى الفتك بكم، دون أن يفعل شيئًا ذا قيمة عملية .. كانت تضحيته بلا ثمن كبير ..» أجل الكفاح بالكلمة وحدها لا يجدى مهما كانت حرارتها وتاثيرها .. الكلمة مجرد بداية يجب أن يتبعها تنظيم وعمل متحد قوى فى إطار المعانى الكبيرة التى يؤمن بها ..»

ووقف « أبو الحسن » وحيدًا فى زنزانته يصرخ :

– ماذا أقول ؟؟ إننى أوشك على الانهيار .. وأتسلل إلى منطقة اليأس، وأتلظى بنار الندم .. لا .. لا .. إن ما فعلته لن يذهب هباء .. صدى الكلمات لا شك فى أروقة الجامعة .. وينتقل إلى الشارع حيث جموع البائسين .. الكلمة هى التحريض .. هى وسيلة الكشف .. هى التى تصنع المواقف، وتحدد سير التاريخ، وتحدث التغيير الكبير .. لو فعل مثلى فى كل معهد علمى .. فى كل مصنع .. فى كل مؤسسة .. لو فعل واحد مثلى .. لتغيرت الأمور، وتحركت المشاعر إلى صنع مستقبل أفضل ..»

استراح لهذه الخواطر .. وأشرق خيال «فاطمة» عبر الصمت والأفكار المرهقة .. وجهها يضئ بالأمل، ويعزف أحلى أغنية .. الطهر والجمال وأناشيد المتصوفين فى عينيها .. الثقة والحنان،

وأراجيز الرعاة على شفتيها .. المستقبل النضر ، والغد المترع بالأحلام الجميلة فى طلعتها .. هى لى وأنا لها .. وأنا على استعداد أن أخوض بحار الأهوال ، أو أقتحم لهيب النار ، وأتصدى لحشود الموت .. وهى إلى جوارى ..

« حبيبتى الله معنا .. لأننا نحب الله .. ونعشق العدل .. وننشدو فى بستان الحقيقة حيث الإيمان والأمل ..» وتذكر الآلام والصفعات والركلات والإهانات المختلفة .. وتذكر الوجوه المكفهرة المنذرة بالجحيم والعذاب .. فابتسم .. لم يخاف والروح بيد خالقها ، والعمر مكتوب ، والطريق واضح ، وأجنحة الحب الشفافة تخفق عليه فى كهفه الأسود ؟؟

وسمع صرير الأبواب .. «ها قد عادوا .. العناء والعذاب فى ركابهم .. اللعنة على كل الظالمين .» وخفق قلبه .. لكنه ابتسم فى شحوب ، واضطربت حركاته ..

– « أبو الحسن .. لك زيارة »

وقف مشدوهًا بعض الوقت ، ثم همس :

– « المحامى ؟؟ »

– لم ينطق الحارس بكلمة سوى : « هيا ..»

الضوء القوى يبهر عينيه بعد ساعات طويلة فى الحبس ، وبعض المسجونين يغسلون أرض السجن ، ويتحركون فى خوف وسرعة .. وسجان قاس يصرخ بهم كى يفرغوا من عملهم على وجه السرعة .. ورجل فى شبه إغماءة .. يبدو عليه المرض الشديد .. يحمله سجينان كما يحملان شوالاً من الأرز متجهين صوب مستشفى السجن الصغير «وفى طرف الفناء الكبير للسجن عمود طويل يخفق فى نهايته علم البلاد وكأنه مصروع ينتفض فى تشنجات متشابهة ... وبجوار العمود

الغرفة اللعينة .. آه .. إنها مغلقة الآن .. وفى هذه الغرفة يأتون به فى المساء .. ويضربونه ...الضابط يجلس خلف مكتبه هادئًا يكتب كل ما يقوله « أبو الحسن » لشد ما يكره هذا المكان .. ذات مرة يا لها من ذكرى مؤذية آلمه الضرب، فما كان منه إلا أن قال لجلاده: « ارحمنى .. أنا برئ » كان يضرع .. شعر وقتها بضعفه، وانهيار عزيمته، وتزلزل إيمانه .. يا لها من لحظات !!

بعدها شعر أن أصابع الشيطان كانت تتسلل إلى فكره وعقله وروحه .. فكيف يضرع لبشر ؟؟

كيف يضرع لغير الله .. هذه كارثة .. وأفاق أبو الحسن من هواجسه على صوت السجان يصرخ به :

– « قلت لك اتجه يمينًا ..»

– ظننت أننى ذاهب لمقابلة المحامى ..»

– « أيها الأحمق .. قلت لك زيارة .. زيارة .. ألا تفهم ؟؟ » وفى حجرة الزوار وجدها ..

كانت تجلس فى لهفة وترقب بثيابها المحتشمة المعروفة، التوتر فى حركات يديها، وعلى ملامح وجهها، وسرعة الحركات فى أهدابها .

– « فاطمة ؟؟ »

– « أبو الحسن ؟؟ »

لم يستطع أن يزيد، فقد كانت الكلمات محتبسة فى حلقه، ولم تستطع هى الأخرى أن تواصل الحديث فقد سبقت الدموع الكلمات، صافح يدًا باردة مرتعشة .. وأخذ يبحث عن الكلمات، إنها هاربة لا تطاوعه، أخذ يبتسم بلا معنى، ويتنحنح بلا سبب .. وأخيرًا استطاع أن يقول :

– «كل شيء يهون ..»
– « هل انتهى التحقيق ؟؟ »
– « أجل .. والمحاكمة بعد غد ..»
قال وقد شعر بيقين لم يشعر به من قبل :
– « لا أخاف إلا الله ..»
وتذكر الضراعة المحزنة للجلاد اللعين فشعر بالخجل ، ماذا لو عرفت فاطمة الحقيقة ؟؟ أتراها تحن لزيارته مرة ثانية ، وتبقى محتفظة بعاطفتها الجياشة نحوه ؟؟ وسمعها تقول :
– «لم يعد أبى »
– حينما أفكر فيما حدث يا فاطمة ، وأنظر حولى ، يخيل ، إلى أننا فى عصر انهيار وانحطاط ..»
قال الضابط الجالس بالقرب منهما حينما رآهما يتهامسان :
– « ماذا تقولان ؟؟ »
قالا فى نفس الوقت فى لعثمة :
– « لا شيء .. لا شيء ..»
– «لكنكما تتهامسان .. يجب أن أسمع جيدًا ما تقولان ..»
كان الضابط يتكلم وهو يتصفح جريدة يومية أمامه دون أن يرفع عنها بصره ، وعاد الضابط يقول :
– « الزيارة جعلت لكى يرى كل منكما الآخر ويطمئن عليه فقط.. كيف صحتك ؟؟ كيف حالك ؟؟ ألا تريد شيئًا .. أنا بخير .. أريد بعض الروبيات .. كيف حال والدى ؟؟ ووالدتى وأخواتى ؟؟ هذا كل ما يقال فى الزيارات .. مفهوم ؟؟ »
وأطرق كل منهما صامتًا بعض الوقت ، وهما يتبادلان النظرات الصامتة ، بعد أن أفسد الضابط عليهما متعة اللقاء ، ولاحظ أنهما قد

أحرجا واضطربا وكفا عن الحديث، فجمع أوراق الصحيفة، ثم هم بالخروج وهو يقول:

– «ساترككما بضع دقائق ..»

وقال وهو يخرج من الباب موجهًا الحديث لأبى الحسن:

– «أنت تعرف النظم واللوائح فى السجون .. أرجو ألا تقع أية مخالفات .. وسأقوم بتفتيشك بدقة عقب الزيارة ..»

تنهد أبو الحسن فى ارتياح:

– «الحمد لله ..»

وعاد يقول:

– ثقى أننى لن أهتز أو أتخاذل ..»

– «أنا أعرفك ..»

امتلأ قلبه بالرضى والثقة، وعاد يقول:

– «يجب أن يصمد الرجال للعاصفة ..»

– «الأمور تسوء يا أبا الحسن»

– «لكل شيء نهاية ..»

– «والناس يموتون جوعًا، أو يأكلهم العذاب والحزن والحرمان خلف الأسوار ..،السفالات تملأ كل ناحية ..»

قال وقد احتقن وجهه:

– «عندما يدوى الانفجار فلسوف يحرق كل الأوبئة ..

– «والبراكين يا أبا الحسن قد تقضى على البرئ والمسئ معًا ..»

– «الانفجار المنظم له اتجاه واحد يا حبيبتى ..

وشعر بالخجل بعد أن تلفظ بكلمة «حبيبتى»، وارتبكت هى الأخرى، غير أنه استدرك على الفور وقال ملاطفًا: –

– «فى السجن يتعلم الإنسان بعض الألفاظ التى تناسب المقام ..»

قالت وهى تخفض من نظراتها فى حياء :

– «لم أتضايق لسماع هذه الكلمة .. إنها من أروع الكلمات ..»

أفراح النصر تدق بين جوانحه ، وفترة السجن بدت أمامه كرحلة ممتعة ، وذكرى رائعة ، أنها طربت لكلمة «حبيبتى» التى أفلتت منه ..

قال وهو يشعر بنشوة عارمة :

– «سوف نحيا بإذن الله حياة جميلة ..»

– «وعندما يعود ابي ، وتخرج أنت ظافراً من هنا .. تكون أجمل وأروع ..»

عاد يتطلع إلى وجهها الجميل وهى صامتة ، كانت تبدو أجمل من أى وقت مضى ، يكفيه أن يجلس ويتطلع لهذا الوجه الباهر الظاهر ، وتاه فى عالمها السحرى الجميل ، وأخذ يغمغم : «وفى ليلى الطويل ، تشرق طلعتك على فانسى الأرق والعذاب والظلام .. أيضايقك هذا الكلام ؟؟ وفى الأوقات الرهيبة حيث يتحول الإنسان إلى حيوان للتجارب ، وتجرى عليه عملية «غسل المخ» .. تبتسم لى عيناك «أجل والله تبتسم لى عيناك .. فأصرخ فيهم : يا فسقة .. يا ظلمة .. يا كلاب .. وعندئذ أرتمى كالمخدر .. لا أشعر بشيء مما حولى .. وأظل أهيم فى حلمى الجميل «حيث الزهور والربيع .. وهمسات الربيع يا حبيبتى طاهرة تذكرنى بحلاوة الحب ، وعظمة الله ..»

ضرب الضابط كفًا بكف ، وهو يدخل ثانية ويقول :

– «انتهت الزيارة .. لن تشبعا من الحديث ولو بقيتما طوال النهار .. هيا يا آنسة ..»

صافحته فى شبه غيبوبة ، ومضت خارجة ، كان يقف كالمسمر فى الأرض وعندما مشت كانت تمشى إلى الأمام ووجهها ينظر خلفها ..

إليه .. حتى اصطدمت بأحد الحراس الذى صاح :

– « أفيقى من النوم ..» .

وعندما اختفت .. تبللت عيناه بالدموع .. قال الضابط له :

– « لا يبكى الرجال ..»

– « أنت لا تعرف كم أحبها ..» .

ضحك الضابط وقال فى بساطة :

– « أننى أرى هذا المشهد يوميًا عشرات المرات حتى أنه لم يعد يحرك فى ساكنًا .. غدًا تتزوجون ، وتنجبون أطفالًا .. وتتشاجرون من أجل المال والنفقات وميزانية المنزل .. ولا تكفون عن الصراخ والجدل ..»

ثم قهقه الضابط ساخرًا : « اسألنى أنا ..»

قال أبو الحسن :

– « إنها شيء آخر .. إنها فوق الماديات والتفاهات ..»

– « الحياة مادة ..»

– « لكننى أشعر بغير ذلك ..»

قهقه الضابط ثانية وقال :

– « غدًا تفيق وتثوب إلى رشدك ..» .

وبعد فترة صمت ، قال الضابط وهو يجلس خلف مكتبه : –

– « حضرت حادثة عجيبة فى « جوكجا » العاصمةالقديمة .. القصة طريفة جدًا .. فتاة هربت من أحد عمال « الأفران » وتزوجت منه على الرغم من معارضة أهلها الفقراء .. كانت جميلة ، وكانوا يطمعون فى زوج غنى .. لكنها لم تستمع لكلامهم .. تزوجت العامل وأنجبت منه طفلين .. وكنت أنا فى « جوكجا » حيث أبلغت للانتقال مع النيابة للتحقيق فى جريمة .. الفران قتل زوجته .. أتدرى لماذا ؟؟

لأنها رفضت أن تعطيه القرط الذهبى الصغير الوحيد الذى تتحلى به كى يشتروا بثمنه أرزًا . . .»

وعاد الضابط يضحك :

– « الأرز كان أهم لديه من حياة حبيبته وأم ولديه ..»

واستطرد وهو يهز رأسه مدعيًا الحكمة :

– « أنت تعيش يا أبا الحسن فى جنة من الوهم ..»

قال أبو الحسن فى إصرار :

– «بل أعيش فى جنة حقيقية برغم كل شىء ..»

ضحك الضابط قائلاً :

« لأن لديك من يكفيك من الأرز » .

تذكر الفقر المدقع الذى يعانى منه أبواه الآن، والبيت الكثيب الخافت الضوء .. فغص حلقه بالدموع .

❁❁❁

وأبو الحسن له والد عجوز قد بلغ الخامسة والستين، لكنه مصاب بالشلل النصفى لا يستطيع مغادرة البيت منذ ثلاث سنوات، ضعيف البصر، ثقيل اللسان، كان يرتق الأحذية القديمة منذ سنوات طويلة، ويكتسب رزقه من وراء هذه المهنة البسيطة، وكان مفخرته التى ترطب حياته بالفخر والرضا هو أنه استطاع أن يفتح باب التعليم أمام وحيده «أبى الحسن»، إذ أدخله فى البداية مكتبًا لتحفيظ القرآن، ثم مهد السبيل لكى يلتحق بإحدى مدارس «شركت إسلام» أحد الجماعات الدينية السياسية الكبيرة فى البلاد، وكان نبوغه مدعاة لأن يواصل تعليمه حتى الجامعة، وفى أثناء دراسته الثانوية، أدرك أبو الحسن أن مهنة أبيه لم تعد تكفى، ومن ثم التحق بإحدى المطابع، كان يجمع الحروف ويعدها للطبع فى المساء، ويذهب إلى دراسته فى الصباح، فاستطاع أن يسد حاجة البيت، وكانت الأم امرأة صالحة مطيعة لا تطمع فى شيء سوى أن ترى ولدها وزوجها راضيين سعيدين، وأصبح أبو الحسن هو العائل الوحيد للأسرة بعد مرض الأب..

غير أن اعتقال أبى الحسن فى الفترة الأخيرة كانت كارثة كبرى بالنسبة لهذا البيت الصغير، الذى لم يستطع أن يدفع أجر المحامى المكلف بالدفاع عن ولدهما، وكان أبو الحسن يدرك حرج الموقف، لكن بعض زملائه فى الكلية تعاونوا فى تدبير المحامى، فكان موقفًا نبيلاً لم يتوقعه منهم ... ولم يكن الأب يكف عن السؤال:

– «ألم يعد أبو الحسن بعد ؟؟»

فلا ترد الأم بغير الدموع، ثم تقول من آن لآخر:

« أنا لا أدرى معنى لما يدور فى هذه الدنيا ..»

وفى يوم آخر قال :

– «يا امرأة أنا جائع ..»

قالت زوجته فى حسرة :

– «لم يعد لدينا شيء ..»

– « إذن سنموت جوعًا إذا لم يعد أبو الحسن على الفور ..»

وأخذ يبكى ... كان نصف فمه يتحرك ويرتعش .. وإحدى عينيه تغمض ثم تنفتح ، والثانية مفتوحة دائمًا ، والدموع تبلل الوسادة السوداء .. ثم أخذ يصرخ بصوت عال .. وامرأته تربت على صدره الذى يعلو ويهبط فى انفعال ..

– «لم يبق لى فى حياتى غير العذاب يا امرأة ..»

– «قل الحمد لله ..»

– « الحمد لله ..»

الشارع يموج بالحركة والحياة ، والمواكب تمضى ، وأعلام خفاقة ترفرف فى الهواء .. وشارة ضخمة على مركز الحزب .. والصحف تلطخها العناوين الحمراء والسوداء .. والراديو يصرخ بالأغانى العاطفية العذبة ، والأحاديث السياسية الطنانة ، وصور الرئيس تملأ شاشة التلفزيون ، والعربات الفاخرة تنطلق مسرعة فى الشوارع .. وامرأة عجوز تقف ذليلة وهى تمد كف الضراعة للسائرين وتقول :

– «لله يا محسنين .. فى سبيل الله يا مسلمين ..»

وعادت فى المساء منهكة القوى ، لاهثة الأنفاس ، ومعها كمية قليلة من الأرز والدقيق ، وقال زوجها الراقد فى فراشه : –

- «لقد غبت طويلاً ...»

- كان على أن أصبر حتى أحصل على ثمن طعامنا من المحسنين .. هل أنت بخير ؟»

قال بصوت واهن :

- «نعم ، لكنه لم يعد ..»

ونظرت المرأة ، فرأت صندوقًا من الكرتون ..

- «ما هذا يا رجل ؟؟»

تنهد فى غير قليل من الارتياح وقال :

- «جاءت فاطمة أطعمتنى وسقتنى ..،تركت لنا هذه المأكولات ومائة روبية .. ثم انصرفت ..»

وتنحنح الرجل ، ثم قال فى أسى :

- «لكم أحزننى أن ترانا على هذه الصورة ! ! كنت أريد لابنى المظهر اللائق به .. تصورى .. لقد ظلت تبحث عن بيتنا ثلاث ساعات «لقد هدها التعب وهو تخوض فى أوحال الأزقة ، وتصطدم بكلابها وقططها ومتشرديها .. أنه لأمر محزن ..»

لم تنطق الزوجة بكلمة واحدة، كان قلبها يدق، وعيناها مخضلتين بالدموع ، وسمعت زوجها يقول :

- «لا تتركينى وحدى مرة ثانية .. فقد كنت خائفًا .. خيل إلى أن عزرائيل يقف على رأسى طوال الوقت .. فكرت أنك قد تعودين وتجديننى جثة هامدة .. هيه .. البقاء لله وحده يا امرأة .. خمسون عامًا من العمل الشاق ولا نجد شيئًا نقتات به .. بل لا نملك قبرًا ندفن فيه .. من حسن الحظ أن الميت .. أى ميت .. يجد مكانًا ينام فيه نومته الأبدية .. هذا هو المكان الوحيد الذى نتساوى فيه ..»

وقامت الزوجة فى تكاسل، ثم أشعلت بعض الأخشاب الجافة، لكى تعد إبريقًا من الشاى، كانت تروح وتجئ وهى شبه ذاهلة، والعجوز المريض لا يكف عن الثرثرة المحزنة، وكلما وقع بصرها على فراش ولدها وكتبه وملابسه المعلقة، انهمرت الدموع، وشعرت كأن مدى حادة تمزق قلبها دون رحمة.

– «يخيل إلى يا امرأة أننا عبء ثقيل على ولدنا حتى وهو فى سجنه.. أنه حساس رقيق الشعور أنا أعرفه جيدًا.. لقد دعوت الله وأنا وحدى هنا أن يقصم ظهر الجلادين والظالمين ... خيل إلى يا امرأة أننى سمعت صوتًا يقول: لقد أجيبت دعوتك يا عبد الله.. ثم دعوت الله أن يكتب له الفرج.. فسمعت أيضًا هاتفًا يقول ... لقد أجيبت دعوتك يا عبد الله ... ومن ثم ترينى واثقًا أننى سألتقى به يومًا ما.. سيأتى أبو الحسن يا امرأة..»

وأخذ يضحك بطريقة تستدر الدموع، والمرأة تروح وتجئ صامتة، ومن آن لآخر تنظر إلى زوجها فى دهشة وهو يثرثر، ولعلها ظنت أن الرجل قد أصابه مس من الجنون ... وعاد يقول:

– «الزقاق كله ملئ بالتعاسات، ونحن مثلهم ... هنا نتساوى فى الشقاء، كما نتساوى فى حفرة الموت...»

❁❁❁

الفصل ١٣

القصر الجمهورى الصيفى، الذى يسكنه الرئيس، قصر فاخر عظيم، تحيط به حديقة غناء كبيرة، غرست فيها الرياحين وشتى أنواع الورود، ويمرح فى الحديقة كثير من الغزلان، والجداول تنساب رقراقة بين الأحجار ومغارس الزهور، وفى الجهة الخلفية للقصر أكبر معرض للأغراس النباتية، فيه كل أنواع أشجار العالم حتى النخيل والتفاح والزيتون والعنب ... كان الرئيس جالسًا فى صالون فخم، يرتدى قميصًا قصير الأكمام، وإلى جواره بعض الصحف، وخاصة الصحف التى تمجده وتعطف عليه، أنه يتأمل صورته المنشورة فى إعجاب، ويردد بعض الكلمات المأثورة عنه والمكتوبة بخط كبير فى اعتزاز، إنها كلماته وهو يعرفها جيدًا، لكنه عندما يقرؤها مطبوعة فى الصحيفة يشعر بنشوة عارمة، ثم أشار إلى أحد رجال الحرس أن يفتح «التليفزيون»، هناك بعض البرامج الخاصة التى تعجبه، أهمها برامج تتعرض لمجهوداته ونضاله وأخباره ومقابلاته الرسمية، وبعض الاجتماعات الهامة التى يخطب فيها، ويأتى بعدها برامج الرقص العالمية، وغالبًا ما يعجز عن السيطرة على نفسه وهو يشاهد الرقص على الشاشة الصغيرة، إذ سرعان ما يصفر أو يدق بأصابعه على منضدة أمامه دقات منغمة، أو يحدث بعض الإيقاعات بقدميه، أو يهز جسده ورأسه هزات متسقة..

وانحنى حارسه الخاص أمامه وقال:

– «فخامة الرئيس .. إن الزعيم فى الانتظار»

– «فليدخل ..»

دخل « الزعيم » باسمًا ناعم الملمس ، تبدو عليه علامات الطيبة والإخلاص والمودة .

– « طاب مساؤك يا سيدى الرئيس ..»

نظر الرئيس فى ساعته الأنيقة الثمينة وقال :

– « أهلًا بك .. جئت فى وقتك ..» .

ودار الحديث حول صحة الرئيس ، ومجهودات الطبيب الخاص ، وعلاجه الفعال ، وخاصة ما يتعلق منه بتقوية النشاط الجنسى ، وتحسين وظيفة الكلى ، وكان يتخلل الحديث بعض النكات المكشوفة التى يقهقه لها الرئيس ، ويلذ له سماعها ، ثم دار الحديث عن المرأة والجمال والشعر الذى كتبه الرئيس بنفسه ، وهنا قال الزعيم فى دهاء :

– « إن روائعك الشعرية تذكرنى بعبقرية طاغور شاعر الهند العظيم .. »

والزعيم يعرف أن الرئيس يقرأ كثيرًا شعر طاغور ويحبه ، فابتسم الرئيس وقال :

– « المرأة أروع قصيدة فى الوجود ..» .

– « هناك مئات القصائد المذهلة ..»

قهقه الرئيس قائلًا :

– « إن لدى ديوانًا ضخمًا منهن »

وكان يقصد بذلك أنه تعرف واستمتع بعدد كبير من النساء الجميلات ، فضحك الزعيم حتى أحمر وجهه ، وعاد الرئيس يربت على كتفه ويقول :

– « أنت تلميذ نجيب لى فى الخطابة ..»

وكان الرئيس من الخطباء الأفذاذ المعروفين ، فقال الزعيم :

– «سيدى الرئيس .. أنا لم أزل فى أول السلم .. أنت أستاذ الشعب ومعلمه الأكبر ..» .

واكفهر وجه الرئيس فجأة وقال دون مقدمات :

– «لشد ما يزعجنى هؤلاء الجنرالات الحقراء .. أشعر أنهم يشلون حركتى ..»

قال الزعيم وقد أدرك أن الرئيس قد أعطى إشارة البدء فى الموضوع الخطير : –

– «سيكون كل شيء على ما يرام يا سيدى الرئيس ..»

– «أريد أن يذبحوا كما تذبح الشياه ..»

– «هذا حكمك .. حكم الشعب .. وليس على جنودك سوى الطاعة والإسراع فى التنفيذ ..»

وكز الرئيس على أسنانه فى غيظ وقال :

– «أريد أن أرى الشعب وهو يبصق على جثثهم ويدوسها بالنعال ..»

– «نعم سيدى الرئيس ..»

– «إن حركة الصراع يجب أن تسحق المعوقين ..»

– «نعم ..»

– «وقد أوصيت «قائد الحرس» بأن يكون صارمًا ..»

– «سيدى الرئيس .. كن واثقًا أن تخطيطنا ليس فيه ثغرة واحدة ..»

ستهز الثورة الدنيا .. وفى يوم واحد سيتغير وجه الجزر الخضراء .. سنحكم جنوب آسيا كله . هكذا وعدت .. وستكون أنت القائد الذى يمضى خلفه مئات الملايين .. فالثورة من هذه الناحية عمل عالمى وقومى مشرف ..»

انتعش الرئيس لهذه الكلمات وقال :

- « إن التضحية بمليون أو مليونين من الحمقى شيئ بسيط.. وهو فى نفس الوقت يعنى حياة جديدة تقدمية لشعبنا العظيم ..» .
- « التطهير ضرورة ثورية ..» .
- « بالتأكيد ..»
- « وهو يقضى على المعارضة نهائيًا ..»
- « هذا ما أؤمن به ..»

وصمت الرئيس برهة ثم قال :

- « أريد أن تكون الحفلة الراقصة الليلة القادمة رائعة ..»

فوجئ الزعيم بتحويل دفة الحديث مرة أخرى، لكنه قال على الفور :

- « ستكون الحفلة مضيئة بالعيون الجميلة ..»
- « وأنا لى فى العيون شعر مذهل ..»

قال وهو يحك قفاه :

- « وهل ستلقى بيان الثورة الأول يا سيادة الرئيس »
- « بالطبع .. لكن ألا تتوقع تدخلًا خارجيًا ؟ »
- مستحيل .
- « ولقد ابتدأنا فى اعتقال وخطف رؤوس الفكر السياسيى الدينى فى البلاد .. أغلبهم وراء الأسوار .. وسنقضى عليهم نهائيًا أثناء الثورة وفور استتباب الأمور لنا .. كل شيء يمشى على ما يرام يا سيادة الرئيس ..» .

وعاد الرئيس يقول :

- « وماذا تظن الصدى الشعبى للثورة ؟؟ »
- « الشعب جائع » لا وزن له فى الحقيقة إزاء هذه الأحداث . القوة وحدها تحسم الموقف.. والشعب أخيرًا مع المنتصر .. لقد انتهى

عصر ثورات الشعوب كشعوب ..»
قال الرئيس فى شرود :
– «لكنه شعب مسلم ..»
– «أعرف .. ونحن نتظاهر بالإسلام .. وفى الإمكان أن تؤمنا فى الصلاة عقب نجاحنا فى المسجد الكبير ..
ضحك الرئيس بصوت عال وقال :
– «يا لك من شيطان !!»
– «أنا لا أؤمن إلا بالقوة المادية التى أمتلكها ..»
– «وهم يؤمنون بالله»
– «الله ليس مادة .. والمادة الحقيقية الوحيدة التى تتشكل وتؤثر ..»
– «لشد ما أحب الفلسفة .. أننى أقرأ هذه الكتب وكأننى فى خلوة صوفية ..»
ومرة أخرى يعود الرئيس للخروج من الحديث الأصلى قائلًا :
– «وكيف حال» زوجتك «؟؟»
– «غيورة إلى أبعد حد»
– «إنها شاعرة ولو لم تكتب الشعر ..»
– «هى مرهفة المشاعر ، وهذه نقيصة فيها ..»
– «إن زوجتك مهذبة وجميلة ورقية المشاعر .. لكنى على يقين إنها ستتغير كثيرًا وهى ترى جثث الجنرالات تتطوح فى الهواء .. والدماء تصبغ طرقات وشوارع جاكرتا .. سوف تكتب الشعارات بالدم .. الشعارات التى تكتب بالدم لها الخلود ..» .

حينما عاد «الزعيم» إلى بيته فى المساء، وكانت الساعة قد قاربت العاشرة مساء وجد فتاة تجلس مع «زوجته» تلبس ثوبًا ضافيًا فضفاضًا، وعلى رأسها شال أبيض: ودلف إلى حجرة المكتب، بينما لحقت به زوجته:

– «من هذه ؟؟»

– «ألا تعرفها ؟؟»

– «لا أتذكرها»

– «هى تزعم أنها ناقشتك فى الجامعة.. والتقت بك فى المنظمة ..»

– «أبوها مفقود، و ..»

– «لا شأن لى بشيء كهذا ..»

– «لكنى وعدتها أن تقوم أنت بالبحث عنه ..»

– «لست زعيم عصابة ..»

– «لكن ..»

قاطعها قائلًا:

– «كفى عن هذا الحديث، إذ ليس لذلك من معنى سوى إننا نخطف الناس.. إننا ندين أنفسنا إذن»

قالت متلطفة:

– «إنه طاعن فى السن ولا خطر منه».

قال وهو يصب كأسًا من الخمر:

– «حقق محمد رسول الله انتصاراته بعد الخمسين.. آفة البلاد هؤلاء العلماء ..»

– «فلنرحمها»

– «العمل الثورى يعتبر الرحمة بالرجعيين هزالًا وحماقة .. بل وخيانة ثم أنها وأبوها أتفه من أن تهتمى بهما ..»

– «لكن مقابلتك لها تعنى الاهتمام بها ..»

– «ليس من أجلها كان اللقاء .. ولكن قصدت به الدعاية فى أوساط الطلبة .. ووجدت فكرها عتيقًا صلبًا كالحذاء الملوث بالأوحال ..»

وخرجت يائسة، وأخذت تحاول فى رفق أن تعتذر لفاطمة بنت حاجى محمد إدريس، وتمنيها الأمنيات الكاذبة، وكان «الزعيم» يقذف فى جوفه بالكأس الثالثة، ويبعث بنظراته المتلصصة من خلف الستار .. ليرى الوجه الطاهر الجميل الحزين .. ويتمتم فى تشف :

– «يا لها من وليمة رائعة على السرير غداة النصر الأعظم ..»

❁❁❁

الفصل ١٤

مشت فاطمة فى الشارع الطويل، جاكرتا مفعمة بالضياع، وتروق لها العربدة والعبث أو لعلها مدينة الزنوج فى يوم عيد غجرى النغم والصراخ والشجون، رائحة القدم، والعراقة تختفى وراء روائها الحديث، لكانها تلبس قناعًا يخفى معالمها ..

وانحرفت فاطمة من شارع إلى شارع على غير هدى، هذا هو موقف السيارات الأجرة، وأحد السائقين يصرخ برئيس الموقف :

– « الدور دورى، فكيف تسمح لغيرى بأن يأخذ ركابى ويرحل ؟؟ لأنه دفع لك رشوة ؟؟ ليست هذه أخلاق رجال »

ويقف رئيس الموقف وهو رجل فى الأربعين، ضخم الجثة، قصير القامة، ذو عينين براقتين، الشرر يتطاير منهما، ومن حوله ميليشيا خاصة، وينقضون على السائق المسكين ركلًا وضربًا، ويلهون به كدمية صغيرة تعسة، ثم يفترقون عنه والدم يسيل من أنفه وفمه، وهو يتملى منظر الدماء التى تصبغ رداءه صمتًا مقهورًا .

وتتمتم فاطمة فى أسى « دنيا » أهذه هى جاكرتا التى أعرفها ؟؟ مستحيل .. الناس كأنهم يرتعون فى غابة لا يحكمها قانون »

وتمضى فاطمة فى طريقها على غير هدى، لقد ملت البقاء فى البيت، وضاقت ذرعًا بالتواجد فى الكلية، وأبوها لم يعد، وخطيبها رهن المحاكمة ،وأبواه فى حالة من الضيق يرثى لها ..

وركبت فاطمة « أتوبيسًا » كبيرًا، الزحام على أشده، ورائحة العرق والقذارة تزكم الأنوف، والناس يثرثرون بصوت عال مزعج مختلط يثير الغيظ، وفجأة يصرخ أحد الركاب :

- «حرامى .. أمسكوا به ...»

وساد هرج ومرج، وتوقف الأتوبيس، الناس يتدافعون كحيوانات فى قفص، ونظرت فاطمة، وجدت شابًا فى السابعة عشر ممزق الثياب، كث الشعر، يضربه الناس من كل صوب، وهو شاحب الوجه، وزائغ النظرات، يتلقى الضربات حزينًا مكبوتًا دون أن يتكلم، يتطوح بينهم كالذبيحة، وجاء شرطى تقدم منه، وربط يديه بحبل متين، وأخذ المجنى عليه واثنين من الشهود، ثم انصرف .. دمعت عينا فاطمة، وقالت فى انفعال:

- «دنيا .. هذه هى جاكرتا الجميلة ؟؟»

وتركت الأتوبيس، واستأنفت المسير، ذاك هو المسجد الكبير ومكبر الصوت يردد الآذان وسط الضجيج والغوغاء، المسجد ساكن رطب، يجلله وقار وضوء خافت، وبضعة رجال أغلبهم من كبار السن، والمنبر كالليث العجوز الرابض من قديم، وفكرت فاطمة فى تأدية الفريضة، فدخلت من باب جانبى خاص بالحريم، كانت وحدها، وقلبها يخفق وهى تؤدى الركوع والسجود، وفى عينيها دموع، ذكريات متزاحمة تحاول أن تفرض نفسها على صفاء فكرها، فتحاول جاهدة أن تبعدها عن ذهنها كى تتفرغ لما تردد من آيات ودعوات، وبعد الصلاة جلست تحوقل وتكبر وتحمد الله، وأفاقت إلى نفسها فإذا المسجد خال، وإذا خادم المسجد، يضرب بخشبة على النافذة إيذانًا بالرحيل ..

وشعرت بقليل من الارتياح وهى تعود إلى الشارع، ورأت من بعيد ضجة كبرى وصفيرًا وصياحًا، واقتربت من مصدر الضجة، ماذا ترى ؟؟ يا إلهى، معركة حامية فى مدرسة ثانوية تتبع جماعة أنصار

الإسلام ، ووجدت صراعًا عنيفًا ودماء ، صورة للعدوان الصارخ الذى لا يرحم ، وتساءلت فى لهفة :

– «ماذا هناك ؟؟»

قال رجل يقف فى ذلة متحسرًا :

– «رجال الحزب يلقنون الطلبة وأساتذتهم درسًا فى الأدب»

– «لماذا ؟؟»

– «لأن الأساتذة فى دروسهم يحذرون الطلبة من الإلحاد ، ويدعونهم للاعتصام بالدين ..»

وخرج التتار ، على صدورهم شارات الحزب منتفخى الأوداج يقهقهون ويضحكون فى استعلاء ، ونظرت فاطمة ، فإذا بأثاث المدرسة كومة من الدمار والفساد ، وإذا بالإخوة من الطلبة والأساتذة يضمدون الجراح فى هدوء عاصف ، وعدد من رجال الشرطة يشهدون المأساة وكأنما يتفرجون .. صرخت فاطمة فى انفعال هادر : –

– «ليست هذه جاكرتا التى أعرفها ..»

وقصدت فاطمة بعدها إحدى دور الصحف ذات الصلة بأبيها ، استقبلها رئيس لتحرير فى شيء من الحذر الممزوج بالأسف ، وقدم لها فنجالًا من القهوة المحلاة ، وغمغم :

– «ألم يعد أبوك بعد ؟؟»

هزت رأسها بالنفى ، وعلق الرجل قائلًا :

– «لا أحد يدرى ما يحدث فى هذه الأيام ..»

روت له أحداث المدرسة ، وعبث رجال الحزب ، وطلبت منه أن يكتب عن الموضوع ، ويلفت النظر إلى هذه المخالفات الخطيرة ، فهز الرجل رأسه فى يأس وقال :

- «لدى مئات الحوادث الغريبة .. الحادث الواحد كفيل بأن يهز العاصمة هزًا، لكن ما الحيلة ؟؟ أصبح التعرض لهم مجازفة كبرى .. قد يضعون المفرقعات فى الدار، أو يعتقلون المحررين، ويلفقون التهم لهم، انظرى ..» .

وأخرج لها بضعة صور وكمية من الأوراق، وأخذ يقول :

- «إنهم يهاجمون مركزًا للشرطة فى الجنوب، ويختطفون شرطيًا، ويعذبونه حتى الموت ..» ويفتح درجًا آخر، ويخرج منه كمية من الأوراق، والتحقيقات الصحفية ويقول :

- «وهنا يداهمون محلات تجارية لأحد رجال المال الإسلاميين ويخربونها، ويسلبون ما فيها ..» ثم يقف أمامها بصورة لأحد أساتذة الجامعة ويقول :

- « وهذا الأستاذ، كان يتحدث فى إحدى الندوات المسائية وأورد رأيًا مخالفًا لرأى الحزب .. فما كان منهم إلا أن أعدوا له كمينًا، ولم ينج من الموت إلا بأعجوبة ..» وهز رئيس التحرير رأسه قائلًا :

- «وعشرات غيرها من الحوادث ..»

ثم عاد يقول وهو يعض على شفته السفلى :

- «والحل ؟؟»

- «أنه طوفان هادر يغرق كل القيم النبيلة ..»

هز رئيس التحرير كتفيه فى اشمئزاز وقال :

- «الحل .. ؟؟»

- «نعم ..»

- «الحرية ..»

- «كيف يا سيدى ؟؟»

« عندما تكون الحرية مكفولة للجميع .. تتضح عورات المنحرفين ، ويلقون جزاءهم العادل ..»

عادت فاطمة تقول :

« وما هو الطريق إلى الحرية ؟؟ »

– « سواعد الرجال الشرفاء .. الكلمة أصبحت سجينة أو عاجزة عن فعل شيء ..»

وسادت فترة صمت قالت فاطمة بعدها :

– « أريد أن أعمل معكم فى الصحيفة »

قال رئيس التحرير دون اكتراث :

– « حسنًا .. لكن لا تطمعى فى كثير من المال ..»

– « المال ليس الهدف ..»

– « يجب أن تعرفى أن الصحيفة تخسر باستمرار .. فليس لنا تدعيم من الخارج والسبق الصحفى هنا شبه منعدم لأننا لسنا على صلة وثيقة بالحكام .. ولا يمكننا نشر الصور العارية ، أو تمجيد أبطال أحد المعسكرين الكبيرين فى العالم .. نحن نمجد الحقيقة .. ورجال الحقيقة يقاسون من الفقر والاضطهاد وقلة الشهرة ..»

قالت فى أسى :

– « أعرف يا سيدى ..»

– « والإعلانات التى نحصل عليها قليلة جدًا .. أتودين العمل بقسم الإعلانات ؟؟ »

– « لا .. أريد أن أكتب رأيى حرًا ..»

ابتسم الرجل فى عطف وقال :

– « الكلمات كثيرة .. والبلاغة متوفرة .. لكن الكلمة رخصت قيمتها فى سوق الزيف الكبير والشعارات الهادرة ..»

ولما لم تجب فاطمة بكلمة قال الرجل :

– «حسنًا .. لتبدئى من أول السلم .. خطوة خطوة .. لتكونى مندوبة للأخبار .. ثم كاتبة تحقيقات صحفية عن المسائل التى تهم الناس .. ثم يسمح لك بكتابة التعليقات المقتضبة الواعية التى تكتب بطريقة مرنة بحيث تفلتين من قبضة الرقابة .. ثم .. إلخ ..»

شعرت فاطمة بالارتياح لكلام الرجل، إنها تحب العمل الصحفى لعله يساعدها على التعبير الصادق عما يعتمل فى قلبها، وهو فى نفس الوقت سوف ينسيها آلام الفراق بالنسبة لأبيها وخطيبها، والصحافة جامعة من نوع آخر قد تحصل عن طريقها الكثير من المعرفة وخبايا الأمور، واصطحبها رئيس التحرير فى جولة سريعة بأنحاء الدار، هذه قاعة المحررين، وذلك مكان المحررات وهناك المكتبة والأرشيف، وأسفل المبنى توجد المطبعة، وفى طرف أقصى صالة الاجتماعات، .... إلخ ..

عندما عادت فاطمة، وجدت أمها فى انتظارها متلهفة :

– « أين كنتى يا ابنتى ؟ »

– « لا تخافى على ..»

– « يكفى ما حدث لأبيك .. ليس من دأبك أن تتأخرى هكذا ..»

– قالت فاطمة وهى تلقى حقيبتها على مقعد قديم :

– « سأتأخر كل يوم ..»

وشرحت لوالدتها ما حدث ..،اعترضت أمها بشدة على فكرة العمل فى الصحافة، وكان رأى الأم أن هذا يضايق والدها، وفى نفس الوقت قد يؤثر على دراستها، إلى جانب المخاطر التى قد يتعرض لها أى صحفى من السلطات الحاكمة، والحزب المسيطر، وحاولت فاطمة أن ترد على اعتراضات أمها، وتطمئن بالها، فلزمت الأم

الصمت ، وتركت لها حرية التصرف حتى يعود أبوها ، وكذلك فعل باقى أفراد البيت ...

قالت الأم فجأة :

– «لقد أتت جميلة الليلة ..»

هتفت فاطمة : –

– «لماذا ؟؟»

– «أخبرتنى أن أباك بخير ..»

وثبت فاطمة وأمسكت بيد أمها فى ضراعة وقالت :

– «أين هو ؟؟»

– «لا أعرف .. وحذرتنى من أن أعلن ذلك على الملأ ولا أنعكس بالضرر على أبيك ..»

لوحت فاطمة بيدها فى غيظ قائلة :

– «ما معنى ذلك ؟ إنها تسخر منا ، وتحاول أن تبرر ما استولت عليه زورًا من أموالنا ..»

– «لقد أرتنى مكتوبًا بخط يده ومزقته على الفور ..»

وقفت فاطمة صامتة برهة ، ثم قالت فى شرود :

– «إذن هو فى جحيم الحزب»

– هذا ما أظن»

وظلت فاطمة ليلتها تفكر فى الأمر ، أيمكن أن تثير ضجة حول موضوع اختفاء أبيها ؟؟ ماذا لو كتبت تحقيقًا صحفيًا عن كل ما جرى ؟

ماذا لو كتبت «بالمانشيت» الكبير فى صدر الصحفية هذا العنوان «جميلة وسر الاختفاء ! !» وراقت لها الفكرة ، وهبت من فراشها ، وأخذت تكتب .. وتكتب .. حتى أوشك الفجر على الانبلاج ..»

وفى اليوم التالى هرولت إلى رئيس التحرير وعرضت عليه الأمر ، قال الرجل بهدوء يحسد عليه : —

— « ما هكذا تكون البداية ..»

— « أنه موضوع مثير ..»

قال الرجل فى شدة :

— « أبوك ليس سلعة »

— « أبى صاحب قضية عادلة ..»

— « لكنك تفكرين فى المجد الصحفى اليوم أكثر مما تفكرين فى أبيك ..»

هتفت فى انفعال :

— « إنك تهيننى ..»

سدد إليها نظرات حادة ، حاولت أن تهرب منها فلم تستطع ، ولجأ الرجل إلى طريقة أخرى فقال :

— « ماذا لو أنكرت جميلة كل شيء ؟؟ »

— « محتمل ..»

— « ثم ماذا ، لو شكتك إلى القضاء بتهمة التشهير بها وبحزبها ؟؟ »

— « معقول .»

— « وماذا سيستفيد أبوك ؟؟ »

— « لا شيء ..»

— « تذكرى أنك مندوبة للأخبار فقط .. مجرد مخبر صحفى ..»

— « نعم ..»

وأمسك رئيس التحرير بالأوراق التى سهرت طول الليل فى تدبيجها ، ثم مزقها فى هدوء ، وقذف بها فى سلة المهملات ، ورأى وجهها يتفجر بحمرة الغضب ، فهمس :

– « الجميع يعرفون الحقيقة .. وتداولها همسًا بين الناس أشد تأثيرًا من نشرها في الصحف .. كثيرون يتحدثون عن أبيك .. والناس يتناقلونها بمزيد من الحواشي والتحليلات في حرية تامة .. أما كتابتها بالأسلوب القانوني الدقيق فسيفقدها الكثير من الغموض الرائع ، والإثارة الكبيرة .. استمعي إلى كلمات رجل خبر الحياة ..»

واعتدل الرجل في مجلسه ، ثم قال :

– «لنا أسلوب آخر في الكتابة في الحياة الفاسدة في مجتمعنا .. فمثلًا .. تصوير حفلة راقصة كبرى يحضرها الرئيس ، والحسناوات الفاتنات وزجاجات الشمبانيا ، وكبار رجال الحزب .. تظهر بوضوح ما نريد قوله في عشرات المقالات ..

حادث انتحار .. جريمة قتل .. سرقة بالإكراه .. خيانة زوجية .. كل هذه الأحداث لها دلالات عميقة ، تظهر سوءات العصر التعس الذي نعيشه .. يجب أن تفهمي أن التعبير المباشر أضعف وسائل التعبير في الأمور الاجتماعية والسياسية .. أنه لا يصلح إلا للدراسات العملية المجردة كالكيمياء والطبيعة .. إلخ .. إننا يا ابنتي نبرز شخصية من الشخصيات ، ونسلط عليها الأضواء ، ونبالغ في مقدرتها وسلطتها كي نقضي عليها .. إنها وسيلة غريبة من وسائل الهدم والانتقام ، أليس كذلك ؟؟ »

ونظرت فاطمة إلى الرجل المحنك في إعجاب ، وأشرق وجهها بكثير من الرضى والاقتناع ، وتمتمت في هدوء :

– « سأنفذ نصائحك ..»

وبعد فترة وجيزة من التفكير قالت :

– « ألم يكن أبي إذن على حق حينما جاهر علانية بنقده للنظام الحاكم ، ونذالة رجال الحزب ؟ ..»

تنهد رئيس التحرير فى ارتياح وقال :

– «كل شيخ وله طريقة .. وهناك كثيرون يروق لهم طريقة أبيك .. والنضال فى حاجة إلى شهداء لا يرهبون الموت أو السجون .. ومن يدرى لعل أباك أشجع وأصلب قلبًا منا نحن الذين نتخفى وراء المهارات الفنية ، والخدع السينمائية إن صح التعبير ..»

وتنحنح وكست وجهه سحابة حزن وقال :

– « أبوك رجل عظيم .. وهو رجل عاقل ، ويدرك أن هناك أساليب شتى للنضال .. ولقد اختار الطريق الصعب .. والذين يحملون السلاح هم قمة الشجاعة .. دعى هذا الأمر يا ابنتى فهو بالغ التعقيد ..»



الفصل ١٥

– « أنانج .. أيها الشرطى الباس .. نريد أن نتخلص من هذا الرجل ..»

وقف مأمور السجن بالكأس الفارغة بعد أن شربها حتى الثمالة ، ثم نظر بعينين حمراوين صوب « أنانج » الضخم الجثة ، ثم قال :

– « الموت شيء بسيط يا « أنانج » .. أنفاس تصمت وينتهى الأمر .. أو قلب يتوقف عن العمل ، ثم يتحول الكائن البشرى إلى مجرد كومة من اللحم تثير التقزز .. هل هذا هو الإنسان ؟ لست أدرى لماذا نحزن ونرهب الموت ؟؟ حاجى محمد إدريس عاش أكثر مما يجب . كان المفروض أن يموت فى حرب الهولنديين وكل ذلك جائز .. أنه ميت لا محالة ، ودورنا أن نعجل بهذا الأمر حتى نريحه ونريح أنفسنا .. وتقدم بذلك خدمة كبرى للحزب .. وبهذه المناسبة سيكون لك شأن كبير يا « أنانج » ..»

لقد رفعت عدة تقارير بشأن ترقيتك ..

كان الجاويش أنانج على جانب كبير من الغباء ، ضخم الجثة ، جامد النظرات ، ميزته الكبرى الطاعة .. تنفيذ الأوامر مهما كان الأمر .. فى المعارك يتقدم لأن قائده يريد ذلك .. خلق ليكون عبدًا وغمغم « أنانج » :

– « دائمًا أنفذ ما تأمرون به يا سيدى القائد ..»

– « أعرف ..»

– « هذا أمر تافه ..»

– « بعض الحمقى من زملائك أرى فى عيونهم العطف على هذا الرجل على الإطلاق ..»

وعاد «أنانج» يضحك بطريقة أدهشت القائد الثمل، فقال له:

- «ما الذى يضحكك ؟؟»

- «كنت أعرف داعرة .. أحببتها من كل قلبى .. كانت نحيفة لكنها مثيرة لأبعد مدى .. أحببتها أكثر من أمى .. أعطيتها كل ما تريد فى حدود طاقتى المادية .. حسنًا .. كان ذلك منذ خمسة عشرة عامًا .. ذات مساء طردتنى من بيتها .. نظرت فوجدت بالداخل رجل .. كنت أريدها لنفسى .. ما معنى أن أتلظى بالحرمان ؟؟ بكل هدوء أخرجت خنجرى وذبحتها ..»

هتف القائد فى انفعال:

- «ذبحتها ؟؟»

- «نعم .. كان الرجل يرتعد بالداخل .. وعندما أطبقت عليه كانت عيناه تعبران عن رعب مريع .. هناك صنف من البشر لا يتعلم درس الحياة إلا فى اللحظات الأخيرة للأسف .. ولكن لا قيمة لذلك .. مزقته بخنجرى كثوب قديم واهن ..

وجلست أضحك .. تصور .. كانت فتاتى أروع ما تكون وهى ميتة .. كنت أضحك وأنا أبكى .. كانت تلك جريمتى الأولى .. أنا لا أسميها جريمة، الجريمة هى أنها تركتنى ..»

قال القائد:

- «هل شربت شيئًا الليلة ؟؟»

- «نصف ليتر من مشروب رخيص ذى طعم حارق ..»

أخرج القائد بضعة روبيات، وقدمها إليه وهو يترنح:

- خذ ولا تشرب إلا النوع الجيد بعد الآن .. تناولها أنانج فى امتنان وهمس:

- «عشت يا سيدى ..»

وتذكر «أنانج» أن الأوامر السابقة تقضى بعدم القضاء على

السجين ، وذكر قائده هو الآخر بذلك ، فرد القائد قائلاً :

– « إنى أنفذ الأوامر بتصرف ..»

ثم وضع يديه على حافة المقعد وقال :

– «ماذا لو خرج هؤلاء السجناء أحياء .. إنهم تهديد دائم لى .. بقاؤهم يثقل على قلبى .. بلادنا واسعة ، والحزب لا يستطيع أن يحمينا دائمًا .. ومن يسقط منا لا يجد من يحميه .. أليس هذا مؤسفًا ؟؟ حاجى محمد إدريس يربكنى .. جعلنى أشك فى كل القيم التى آمنت بها .. إن كلماته تعذبنى .. ورؤيته تعذبنى .. إن له قوة من نوع غريب .. بفلسفتى التى أعتنقها .. أكره أن يحدثنى أحد عن الله .. وأنت يا « أنانج » أتؤمن بالله ؟ »

قال الشرطى فى لعثمة :

– « أنا أؤمن بتنفيذ أوامر قائدى ، ولا أفكر فى شيء غير ذلك »

ضحك القائد وقال :

– « أنت رائع .. أيها الثور الجبار ..»

المساء .. والصمت .. والسجن الكبير ، وحاجى محمد نائم فى زنزانته ينبعث عنه غطيط خفيف ، ومن آن لآخر يتقلب على جنبيه ، ويردد كلمات التوحيد وهو كالحلم ، أو يصلى على خير الأنام ، وفتح باب الزنزانة السوداء ، وامتدت يد تقول :

– « حاجى محمد .. حاجى محمد ..»

هب حاجى محمد من نومه وقلبه يدق ، وقال فى استسلام :

– « ماذا ؟ أهى جولة أخرى من جولات التعذيب ؟ ألا ترحمون ؟ »

وسمع عبر الظلام صوتًا يهمس :

– « بل جئت لأنقذك ..»

– « من أنت ؟؟ »

– « أنانج ؟؟ »
– « مستحيل .. أنت قاسى القلب لا تعرف العطف ..»
– « استمع إلى جيدًا .. أنهم يريدون قتلك .. يجب أن تصدقنى هذه المرة .. لقد كلفنى القائد بتنفيذ حكم الإعدام فيك ..»
أفاق حاجى محمد لنفسه تمامًا ، وأخذ يستعيد كلمات « أنانج » فى تمهل ، ويتذكر تصرفاته ومعاملته البشعة للسجناء ، وقال :
– «لكن سياطك يا أنانج لم تزل على ظهرى ..تقرحاتها تؤلمنى باستمرار ..»
– « أعرف .. وقد جئت هذه المرة لأكفر عن خطاياى لعل الله يغفر لى ..»
تنهد حاجى محمد فى حيرة ، ثم عاد إلى رقدته وهو يقول :
– « أنا رجل طاعن فى السن ، وقد أسلمت أمرى لله .. ولم أفر حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً ..»
– « أيها الأحمق أنك تضيع حياتك هدرًا ..»
– «ولم أفر ؟ أننى لم ارتكب جرمًا ..»
– « هذا لا يهم .. هذا المكان لا قانون فيه ولا منطق .. إرادة القائد هى كل شىء ..»
– « وفوقها إرادة الله ..»
جذبه أنانج من طوقه ، وهزه فى عنف وهو يصرخ :
– « أنك تفقد الفرصة المتاحة لك إلى الأبد ..»
وعاد حاجى محمد يفكر ، ثم قال :
– «وكيف نخرج ؟؟ الحراس يحيطون بالسور .. وهم يطلقون الرصاص على أى شبح يتحرك ..»
– «لا شأن لك .. لقد دبرت كل شىء .. وعلى بعد خطوات سيارة تنتظر .. وعلى الشاطئ قارب صغير .. والقائد نائم ..»

قال حاجي محمد :

– « لست مرتاحًا لهذه الفكرة يا ولدى ..»

– « افهمنى ..»

– « الناس هنا يموتون من آن لآخر .. وفى المعتقل ما يقرب من ألف رجل .. إن الواحد من المسجونين ليخطئ خطأ هينًا فإذا بالكدر يعم السجن كله .. ماذا لو هربت سينصب العقاب على التعساء الذين يسجنون هنا .. وقد يحصدونهم بالرصاص .. أنا لن أترك هذا المكان إلى أن يشاء الله ..»

ركله أنانج فى عنف ومضى ..

وفى اليوم التالى قال القائد « لأنانج » :

– « ماذا تم ؟؟ »

قال « أنانج » :

– « فشلت الخطة »

– « لماذا ؟؟ »

– « رفض الهرب ..»

– « هذا يثيرنى أكثر ..»

– « لو شئت خنقته فى زنزانته ..»

– « يجب أن يقتل وهو يحاول الهرب .. هذه خطتنا ولابد من تنفيذها ..»

– « وماذا أفعل يا سيدى القائد ؟ »

– « لا شأن لى ...»

– « حسنًا .. دع الأمر ، وكن واثقًا من تنفيذه الليلة ..»

وأنانج يقضى معظم وقته فى السجن، يعشق الإقامة فيه، ويتضايق إذا خرج منه، وتجول فى المدينة أو القرى المجاورة، فالناس هناك لا يعرفون قدره، ولا يؤدون له ما يستحق من

« احترام » لكنه إذا مشى فى السجن احترمه المسجونون ، وارتعبوا لرؤيته ، وحيوه بأدب ، وزملاؤه لا يسيئون إليه لأنهم يعرفون دوره القذر ، وصلته الوثيقة بالقائد ، ومع ذلك فإن الأوقات القليلة التى يقضيها فى الخارج ذات نكهة خاصة بالنسبة له ، فهو لا يقصد إلا امرأة تبيع نفسها يقضى بين أحضانها الليل كله ، ويدفع لها قدرًا كبيرًا من المال ، أو يتلف إلى إحدى دور السينما الرخيصة ليشاهد رواية من روايات رعاة البقر .. وما عدا ذلك فليس أحب لديه من أن يقضى وقته فى السجن مستمتعًا بسلطانه الذى لا يحد لقد خلق ليكون سجانًا موهبة ولد بها واستطاع تنميتها وتربيتها خلال سنوات العمل المثير فى السجون تحت رئاسة زمرة من ضابط الاستخبارات الذين يتبعون الحكومة المركزية اسمًا ، ويأتمرون بأوامر الحزب فعلاً ..

وظل حاجى محمد يفكر فيما جرى بالأمس ، أهى خدعة من خدع الاستخبارات ، أم أن فى هذا الجحيم الفظيع تنبض بعض القلوب بالحنان والمودة ؟؟ كل شيء يختلط فى هذا المكان العجيب .. أيمكن أن يكون فى بلادنا الحبيبة مثل هذا الشطط الغريب ؟؟ لكنه فى النهاية ظن أن « أنانج » يخفى وراء مظهره قلبًا طيبًا ، فما أكثر الذين يقومون بأعمال قذرة وهم فى قرارة أنفسهم يلعنون الآمرين بها ....

وقبل منتصف الليل سمع حاجى محمد صرير المفتاح بالباب ..

– « هيا ..»

– « إلى أين ؟؟ »

– « استكمال التحقيق ؟؟ »

– « هل أنت أنانج ؟؟ »

– « لا تنطق باسمى حتى لا تلوثه »

– « ما أكبر الفارق بين الليلة والبارحة ..»

– « بماذا تهذى أيها المخرف ؟ »

– « لا شيء .. لكنهم لا يحققون .. إنهم يتساون بعذابى بطريقة رهيبة ..»

– « اخرس وإلا حطمت جمجمتك ..»

وسار حاجى محمد أمامه يظلع .. لشد ما تؤلمه ركبته اليمنى » أنه لا يكاد يطيق آلام الروماتزم المفصلى الذى ازدادت حدته ، فى هذه الأيام ، ونظر حاجى محمد فلم يجد القائد .. ولا الطاولة .. ولا الكاس بجوار زجاجة الويسكى .. ولا الموكب الليلى الذى يتسلى بعذاب الأبرياء ..

– « لا أحد هنا ...»

قال أنانج فى قحة :

– « لا شأن لك .. تقدم ..»

– « إلى أين!! »

– « أترى ذلك الباب الصغير الخلفى .»

دقق حاجى محمد بعينيه الضيقتين وقال وهو يشير بيده المرتعشة

– « أهو هذا ؟؟ »

– « تقدم ...»

– « لكنه يؤدى إلى الخارج حسبما أعتقد ..»

– « لست أنت الذى تختار مكان التحقيق ..»

– « أعلم ..»

– « الجلسة هناك فى ملحق قريب من السجن ..»

– « الأمر لله ..»

وخرج الاثنان من الباب « الدنيا فسيحة .. وأضواء خافتة تظهر من بعيد ، أنها أضواء السفن التى تجوب البحر ، وغمغم حاجى محمد

وهو يملأ رئتيه بالنسيم الطازج الحلو : —

— « يا دنيا الله .. ما أحلى الحرية !! »

ودوت رصاصات متتابعة كانت تومض فى جنون ، ماذا هناك ؟ وصرخ « أنانج » :

— « لقد أصابونى .. أنه لخطأ فادح .. أننى أموت .. »

وارتمى حاجى محمد صوبه ، وأخذ يتحسس بيديه المرتعشتين التراب البارد حتى اصطدم بأنانج الملقى على الأرض :

— « هل أصابك مكروه يا ولدى ؟ »

كان « أنانج » يخور كثور ذبيح ، وكان يحاول التكلم فى صعوبة بالغة ، ويقول :

— « إنه لخطأ فادح ... سيعاقبهم القائد عقابًا لا رحمة فيه . »

وشعر حاجى محمد بالآلام رهيبة فى عموده الفقرى من أسفل ، حاول أن يخطو فلم يستطع ، تحسس ظهره بيده المرتعشة فشعر بالزوجة الدم وسخونته :

— « لقد أصبت أنا الآخر .. ما معنى ذلك كله »

وسرعان ما دوت الصفارات ، وأضيئت الأنوار الكاشفة ، وهرول العشرات من أفراد كتيبة الحراسة المسلحين ، وتجمهروا حول المصابين ، وفى دقائق أتى القائد الذى نظر إلى جثة « أنانج » بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة :

— « هذا الخائن أراد أن يهرب خائنًا مثله .. »

ثم ركله بقدمه فى احتقار ، ونظر إلى حاجى محمد إدريس وقال فى دهشة :

— « وأنت ألم تمت بعد ؟ حسنًا .. انقلوه إلى غرف الإسعاف .. »

فى اليوم التالى كان الحادث مثار جدل بين طاقم الحراس فى السجن من سجانه وصف ضباط وضباط ، وتهامس به المعتقلون

الذين طبقت عليهم التعليمات الصارمة، والعقوبات الرادعة، وحرموا من الطعام لمدة يوم كامل ..

وفى مجلسه الخاص أثناء تقارع الكؤوس، قال القائد وهو يقهقه فى هستيرية :

– « أنانج كان يجب أن يموت .. لأنه سجل حافل بكل ما نرتكبه من جرائم .. وهو غبى .. يستطيع أى عدو فى الثورة المضادة أن يستغله ضدنا .. لشد ما ارتحت لمصرعه لقد دبرت ذلك كله .. غير أن الذى آلمنى هو أن حاجى محمد نجا بأعجوبة ..وهذا يثير فى نفسى شكوك، أيكون لهذا الرجل قوة سحرية خارقة ؟؟ »

وجلس حاجى محمد متفكرًا فى غرفة الإسعاف بعد أن ضمدوا له جرحه واستخرجوا له الرصاصة على يد طبيب لهم، وكان يغمغم فى أسى عميق وحزن بالغ :

– « مسكين أنانج .. لقد أراد إنقاذى فراح ضحية أريحته أنا لم أكن أريد الهرب .. رحمه الله .. نظر إليه أحد المضمدين فى سخرية وقال :

– « أنت حاجى طيب .. لقد عاش أنانج كلبًا ومات كلبًا .. لقد دبر لك الهرب شائعة تقول بأن القائد اراد التخلص منكما .. القائد هو الذى رسم ودبر كل شيء ..»

نظر حاجى محمد حوله فى حيرة، وقال وعيناه مغروقتان بالدموع.

– « يا خفى الألطاف ..»

❁❁❁

الفصل ١٦

قال «الزعيم» لزوجته، وقد ألحت عليه مساعدة فاطمة، وإلقاء الضوء على قضية أبيها المختفى: «عزيزتى .. يجب ألا تشغلى بهذه الأمور التافهة»

– «إنها مهمة إنسانية»

– «صدقينى .. أنا لا أعلم شيئًا عنه ..»

– «أليس هذا غريبًا ؟؟»

– «وما وجه الغرابة فى ذلك، إن حماقة الرجل لا شك هى المسئولة عما جرى له، هناك احتمال بأن بعض شباب الحزب قد ضاقوا به ذرعًا .. لكنى لا أعرف، إن للمنظمات الحزبية التابعة لنا سلطة محلية، وكل زعيم يتصرف حسبما يرى ... لا يمكن أن يؤخذ رأيى فى كل شيء ... إننا أكثر من عشرين مليونًا الآن . . .»

وأخذ يشرح لزوجته كيف أن تلك الفتاة «فاطمة» كانت فى منتهى القحة والجرأة وهى تناقشه فى الجامعة على مشهد من الطلبة جميعًا، وكيف أنها أتت إلى المنظمة وحاولت أن تنسفه فكره وتحمل عليه، وشرح لها كيف أن الفتاة مدفوعة من جهات مشبوهة لمضايقته والتشهير به، فهى من الجناح النسائى لحزب ماشومى، وأخبر بما حدث من «أبى الحسن» فى الجامعة، فقد أثار الاضطراب والفتنة وأطلق شعارات عدائية ضده وضد الحزب، ووضع الملصقات الوقحة، ثم ضحك الزعيم وقال:

– «تصورى أنها زعمت لعدد من الناس أننى أطلب منها الزواج؟.»

قالت وهى ترمقه فى شك:

– هذه الفتاة صادقة دائمًا . . .»
دق بكفه على جبهته وقال :
– «يا لك من غيورة ! !»
– «أنا أعرفك . . .»
– «أنا لا أفكر فى اصطياد قذرة مثلها . . .»
– «أنت لا تفرق بينهن . . . .»
قال وهو يغمز بعينيه :
– «أنا ذواقة . وليس لدى وقت للعبث الواسع»
وبعد أن خرج استدعت «زوجته» «جميلة» عضوة المنظمة، لأن فاطمة كانت قد أكدت لها أن جميلة تعرف شيئًا عن سر أبيها، ولما حضرت جميلة كانت ترتجف، طمأنتها وسألتها عن المنظمة ونشاطها وتدريباتها فى القاعدة الجوية، وسعدت جميلة أيما سعادة وهى تسمع لزوجة الزعيم، وأخذت تلقى عليها بعض الأسئلة التى تشغل بال أفراد الحزب، وكانت جميلة تجيب فى ثقة تدل على إلمام تام بمجريات الأمور، وأخيرًا تحدثت الزوجة عن حاجى محمد إدريس واختفائه، فردت جميلة على الفور قائلة وقد شحب وجهها :
– «أنا لم أتقاض منها روبية واحدة . .»
قالت الزوجة فى دهشة :
– «وما دخل الروبيات فيما نتحدث فيه ؟؟»
إنها لم تثر موضوعًا كهذا . .
اطمأنت جميلة، والتقطت أنفاسها اللاهثة، وعادت تقول :
– «حاجى محمد رجل خائن . .»
– «أعرف . .»
– «وقد تكفل رجال الحزب بتأديبه»

– « هل قتلوه ؟؟ »

قالت جميلة :

– « لا يا سيدتى .. لكنه محجوز فى مكان لا أعرفه حتى نضرب ضربتنا .. وبعدها نتصرف فيه ..»

– « . . . أتعرفين مكانه ؟ »

– « لا يا سيدتى ..»

– « إذن فلتخبرى المسئولين نيابة عن الزعيم أنه لا يصح الإضرار به حتى تحين ساعة إطلاق سراحه ..»

– « أمرك يا سيدتى ..»

ارتاحت الزوجة لهذه النتيجة كخطوة أولى ، لم تكن تكترث بمصير معارضيها السياسيين قبل ذلك ، بل كانت متحمسة للقضاء عليهم من أجل مصلحة الثورة ، لكنها تأثرت هذه المرة بكلمات فاطمة ، وأعجبت بعقلها وإخلاصها وشجاعتها وجمالها ، وزاد من احترامها لفاطمة أن هذه الفتاة الفقيرة الضعيفة لم تستسلم للإغراء ، ووقفت صلبة طاهرة فى وجه الإغراء والتهديد ، ولم ترتم على أعتاب أحد ، ولم تبع نفسها للشيطان فى هذه الأيام السوداء التى أصبح الشرف مجرد وهم كاذب ، وبلاهة مفرطة ...

ذهبت فاطمة لدار الصحيفة التى تعمل بها ، الصحفيون يجلسون ويحتسون أكواب الشاى الساخن لكنهم يثرثرون عن أحداث كبيرة قد بدت نذرها فى الأفق ، وكل واحد منهم يروى حادثة :

« الأسلحة الخفيفة تتدفق على شواطئ الجزر »

« أصبح ميليشيا الحزب مدربة تدريبًا جيدًا »

« زعماء الحزب يلقون الخطب النارية فى أنحاء البلاد . ويهددون الرجعية ، وينذرون بإقامة المشانق ... وسفك الدماء »

« كثرت حوادث الاختطاف والاغتيال والاعتقال ..»

« الجيش تحكمه قبضة قوية .. وجنرالاته الطيبون نائمون »

قال شاب صغير ممسك بالقلم :

– « وما مصيرنا نحن ؟؟ »

ردت فاطمة فى يأس :

– « تغلق الجريدة ، ثم يساق محرروها كالأغنام أما إلى الموت ، وأما إلى السجن . ..»

رد شاب طويل الشعر ، طويل السوالف :

– «لا شأن لى بكل هذا ، فأنا مندوب فنى لا أعرف شيئًا غير المسرح والسينما وحفلات الرقص ..»

وقال زميل يجلس إلى جواره :

– « وأنا محرر بالصفحة الرياضية .. لا أتحدث إلا عن بيليه ملك الكرة .. ودى ستيفانو .. وياشين الروسى .. وكلاى ..»

وصرخت فاطمة فى حدة :

– « إننا نلهو .. وعندما تنقض الصاعقة .. فستنهدم الدنيا على رؤسنا جميعًا .. أتعرفون قصة القرية الظالمة ؟؟ »

وعاد الجميع يرشفون أقداح الشاى .. ويكتبون فى صمت ..

❁❁❁

الفصل ١٧

فى اليوم المشئوم ، أعطى الكولونيل قائد الحرس الجمهورى إشارة البدء فى اندلاع الثورة ، وكان قد جهز عدة مجموعات مكونة من الحرس ومن جبهة شباب الحزب لاختطاف ثمانية من كبار جنرالات الجيش المعروفين بعدائهم للحزب وتسلل المتآمرين تحت جنح الظلام .. هذا هو بيت قائد القوات البرية ، والذى لفت الأنظار بالأمس القريب إلى تسلح رجال الحزب وتدريبهم واستعدادهم للقيام بحركة مخربة .. لابد من البدء به .. أنه .. عدو لدود للحزب ..

استيقظت أسرته المسكينة على صوت طلقات رصاص على الباب ، وكان المهاجمون قد كسروا الحاجز ببنادقهم ، واندفعوا إلى داخل البيت بمسدساتهم ، وسرعان ما استيقظ الجنرال وزوجه وأطفاله الثمانية ، وكان قد قتل حرسه الخاص ، وسألهم ماذا تريدون ؟؟

– « الرئيس يريدك ..»

– « حسنًا فلتنصرفوا ، وسأذهب إليه بمفردى ..»

– « لابد أن تأتى معنا ..»

– « هل معكم مكتوب بذلك . ..»

– « الأوامر شفهية ..»

– « فلتذهبوا وسأخاطبه بالتليفون ..»

وانطلقت الرصاصات على القائد فجأة ، فسقط قتيلاً وسط صراخ زوجه وأطفاله الثمانية وخدمه ، ثم جر الثائرون جثته ، ووضعوها فى سيارة وانطلقوا إلى القاعدة الجوية التى تبعد خمسة عشر كيلو مترًا عن جاكرتا ...

وكذلك تم اختطاف وقتل عدد آخر من الجنرالات وأفلت أحدهم من الاغتيال بما يشبه المعجزة ... ففى آخر الليل سمع الجنرال ضجيجًا على غير العادة، مما أثار الانزعاج، ولوحظ أن أبواب البيت تفتح قسرًا، وأن الضجة تقترب، وأسرعت الزوجة نحو الباب، وسرعان ما أغلقته وعادت تقول :

– «لا تخرج.. فالوضع مريب.. إن هناك ثلة من الحرس الجمهورى مدججين بالسلاح ..»

– «مستحيل.. لابد أنها مؤامرة تحاك ضدك .»

– «أين سلاحى ..»

– «أنتظر ..»

كانت ابنته الصغيرة تقف مشدوهة، إنها تبلغ من العمر خمس سنوات، ومع ذلك أدركت بغريزتها أن أمرًا مخيفًا قد أحدث الانزعاج والاضطراب فى البيت :

– «ما هذا يا أبتى ..»

– «اهدئى يا ابنتى فلن يحدث غير الخير ..»

– «أنا خائفة . ..»

ضمها إلى جواره فى حنان وقال :

– «كونى مطمئنة يا حبيبتى ..»

والتفت الجنرال إلى زوجه وقال : –

– «ليست هذه المرة الأولى التى أخوض فيها الموت.. والأعمار بيد الله ..»

– «الشجاعة بدون حكمة لا معنى لها يا زوجى الحبيب ..»

– «أعرف ..»

وفتح الباب ونظر، وإذ بجندى من الحرس يرفع بندقيته ليطلق

الرصاص على الجنرال، وسرعان ما تراجع إلى الخلف وأغلق الباب فى لمح البصر، وانهالت الطلقات صوب الباب، لكن القائد وزوجه وابنته استلقوا أرضًا تفاديًا للطلقات المجنونة :

– « إنها الخيانة يا زوجتى تحيط بنا من كل جانب ..»

– « أفهم شيئًا مما يدور .. وإن كنت أرجح أن يد الإرهاب الحاقدة تحاول أن تحرق أمن البلاد وسعادتها ..»

وابتدأ المهاجمون فى تكسير الباب الغليظ المغلق، وقدمت أخت القائد وحاولت الخروج هى والزوجة والصغيرة ..

لقد انهال عليهن الرصاص، بينما دفعت الزوجة زوجها صوب الحمام.. ثلاث رصاصات استقرت فى قلب الصغيرة فلفظت أنفاسها ..،أصيبت الأخت بأعيرة نارية قاتلة وكذلك الزوجة أما الجنرال فقد وثب إلى داخل السفارة المجاورة لبيته وبقى بها حتى الصباح ..

وفى القاعدة الجوية كان هناك حشد كبير من نوع آخر، رفقاء الحزب، وزعماؤه وعدد من كبار الضباط يحيطون بالأبرياء من جنرالات الجيش والأموات، ويمثلون بجثثهم أشنع تمثيل .. والكئوس تدور والقهقهات يتردد صداها فى الآفاق، إن الأمور تمضى حسب هوى المتآمرين، ووضع الرئيس يديه فى جيوب سترته، وقال : « آخر التقريرات، أريد أن أعرفها ..»

وعلم الرئيس أن الجنرال ذا الشهرة الواسعة، والذى لعب دورًا بطوليًا فى إفشال ثورة الحزب الأولى لم يقبض عليه حتى الآن، فصرخ وقد بدا جليًا غضبه الزائد :

– « كيف أفلت ؟؟ كيف أفلتوه ؟ »

وسادت الغرفة موجة من الصمت الرهيب، أنهاها أحد القادة بقوله:

- «سيدى الرئيس .. لقد انتهى أمره وسيلقى القبض عليه لا محالة بعد حين، فالأمر لنا، والسلطة بأيدينا، وهو الآخر مجرد هارب مطارد ..»

- «إن الضربة محكمة، ولا ينقصها إلا هذا الملعونان لا يصح أن يعيشا ..» ومع ذلك فقد أخذ الرئيس يهنئ القادة والعسكريين بما حققوه من انتصارات رائعة فى خلال بضع ساعات، وخاصة بعد أن وردت تقارير من جميع أنحاء البلاد تفيد استيلاء رجال الحزب على جميع المرافق العامة والشرطة والأعلام ومحطات الماء والكهرباء .. إلخ.

عادت «جميلة» إلى بيتها لبضع دقائق، آملة أن تعود مسرعة مرة أخرى إلى القاعدة، فقد كانت حريصة على إطعام دواجن البيت وحيواناته والاطمئنان على المرأة العجوز أم زوجها، ولتطمئن على الوضع فى جاكرتا بنفسها دون أن يكلفها أحد بذلك ..

وما أن وصلت البيت حتى قبلت العجوز فى حرارة .. وأخذت تتكلم فى عجلة وانبهار وتقول:

- «تصورى يا أمى .. أنه يوم العمر الذى لا ينسى .. فى القاعدة الجوية، وزعت علينا خناجر صغيرة وشفرات حلاقة، وقد حصلت على موسى حلاقة فقط .. كنا كثيرات .. وعلى البعد شاهدنا رجلًا بدينًا يرتدى ملابس النوم، ويداه مقيدتان، وعيناه معصوبتان بعصابة .. وكان زعيم فصيلتنا ينهال عليه ضربًا، ثم بدأ فى تقطيع أجزاء

خاصة منه، بعضها أخجل من ذكره، وكان الذى بدأ بضربه وتقطيع أوصاله هو أحد رفاقنا وكانت معه زوجته تساعده، وهما زعيما فرع المنظمة .. ثم تبعهما بعض الرفاق .. وأخيرًا شاركت أنا شخصيًا فى المجزرة .. كان شيئًا مثيرًا رائعًا .. وأخيرًا أطلق النار على الضحية ثلاث مرات فسقط أرضًا ولم يمت .. فقام أحد الأشخاص، وأصدر أمره للتحقق من موت الرجل، وقال: قفوا فوق جثته كى تتحققوا من موته ..»

قالت العجوز وقد أقشعر بدنها :

– «أعوذ بالله .. ولماذا تكرهونه لهذا الحد ؟؟ هل سرق أو قتل أو اعتدى على عفاف إحداكم ؟؟»

– «إنه مجرم فى حق الشعب ..»

– «لا أفهم شيئًا مما تقولين ؟؟ هل تعرفينه شخصيًا ؟؟»

– «كانت العصابة على عينيه .. وأنا لا أعرف كل هؤلاء الكبار ..»

– «تقتلين رجلاً لا تعرفينه»

– «هو عدو ..»

– «أنتم لا تعرفون شيئًا ..

ضحكت جميلة، وأخذت تروى لها عشرات القصص المشابهة، وأخيرًا قالت العجوز عندما علمت أن جميلة مزمعة على الخروج :

– «حافظى على نفسك .. فالشارع كما سمعت تغرقه الدماء ..»

أمسكت جميلة بشارة الحزب، وقربتها من عينى العجوز، وقالت :

– «أترين هذه ؟؟»

تحسستها العجوز وقالت:

– «قطعة معدنية كالتى يلهو بها الأطفال ..»

ضحكت جميلة وقالت :

– «تلك شارة الحزب .. هذه تفتح لى الأبواب المغلقة .. وتجبر الجميع على احترامى ، وتحقق لى كل ما أريد ..»

– «لعلها خاتم سليمان»

– بل أعظم منه ..»

وعادت جميلة إلى القاعدة الجوية ..

وفى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى أذاع الراديو ، أول بيان للحزب عن نجاح الثورة بعد أن تمت لهم السيطرة عليه ، وذكر الراديو أنهم استولو على المنشآت الهامة ، وسيطروا على الأماكن والمراكز الاستراتيجية ، واعتقلوا الخونة ، وبعد ساعة أعاد الراديو إذاعة هذا الإعلان وبيانات أخرى متعلقة بالوضع ، ثم أذاع الراديو بعد ذلك البلاغ رقم واحد بتوقيع الكولونيل قائد الحرس الجمهورى ، ورددت محطات الإذاعة نفس البيان ، واستبشر رجال الحزب بهذا النصر العظيم ، وخرجت المظاهرات منذ الصباح الباكر ، حمل خلالها اللافتات والرايات ، رافعين شارة شعار الحزب ، يغنون ويرقصون ، ويهتفون ويصرخون فى بعض شوارع المدينة المذهلة ، وصدرت صحف الحزب فى ذلك اليوم معلنة النصر الكبير ، ونجاح الثوريين ضد الرجعية .. وكتبت صحفية تمجد الكولونيل كبطل ثار ضد مجلس الجنرالات ، ووصفته الجريدة بأنه ولى الله على أعدائه ... وذكرت إحدى الصحف الأخرى أنه من الضرورى القضاء على جميع الخونة وإعدامهم .. كما أعادت صحيفة أخرى فقرأت من خطاب الرئيس قبل الثورة بيوم واحد جاء فيه « أن الاستقرار لن يكون إلا بعد إراقة الكثير من الدماء ، فالطريق نحو هذه الغاية صعب جدًا ، ولكننا يجب ألا تأخذنا الرحمة أو الشفقة . لابد أن نصفى هؤلاء الرجعيين حتى ولو أدى بنا الأمر إلى أن يقتل الأخ أخاه ، أو الابن أباه ، والقريب قريبه ..»

تغير وجه المدينة ..

صبغ الشقاء وجه جاكرتا الحزينة .. دخان يعلو ويغطى جمال السماء .. وصراخ ينساب كالعويل اليائس .. وبعض الجثث ملقاة فى الشوارع تنزف منها الدماء .. وكلاب تحوم حول الجثث .. الخوف جعل الناس يهرعون إلى بيوتهم وينظرن إلى الموتى محزونين دون أن يفكر متطوع فى مواراتهم التراب .. من يدرى ؟! إن من يدفن رجعيًا ربما تلصق به تهمة الرجعية ..

ضحكت فاطمة فى هستيرية وقالت :

– « انتهينا ..»

وعادت تضحك والصمت مخيم على البيت، وأهلوها يجلسون كأنهم فى مأتم، كانت شاحبة وعيناها تبرقان فى جنون، وأخذت تدق الحائط وتقول :

– « إذن لن يعود أبى .. ولن يخرج أبو الحسن .. وسيتحول رجال الإسلام خلف الأسوار إلى عظام نخرة .. ستموت كل القيم الفاضلة فى بلادنا الحبيبة ..»

وأخذت تصرخ وتبكى وتهتف بلا وعى :

– « تحيا الثورة .. تحيا الثورة ..»

ثم صمتت فجأة، وقالت :

– « دعونى أخرج ..»

تقدم أحد أقربائها الكبار وقال بجفاف :

– « لن يخرج أحد ..»

وعادت إلى ضحكات الجنون وقالت :

– « ابشروا بالنصر إذن ..»

– « ستزول هذه الغمة ..»

قالت فاطمة فى اندهاش :

– «كيف ؟؟ ببقاء كل فرد فى بيته ؟ أليس هذا مضحكًا ؟»
– «البيانات الثورية التى تسمعينها فى الإذاعة ليست كل شيء ..
مدت فاطمة عنقها وعيناها مفتوحتان على آخرهما وقالت :
– «والجثث فى الشوارع ؟؟»
– «شهداء يرحمهم الله ..»
قهقهت فاطمة وقالت :
– «نحن نتفلسف .. والبلاد تهوى إلى حضيض ساحق ..»
والتفتت فاطمة إلى أمها قائلة :
– «وماذا بعد أن نعيش مائة عام ..»
– «الموت يا ابنتى ..»
صفقت بيدها وقالت :

– «الموت .. ولا شيء غيره .. أهناك فارق كبير بين أن يزيد العمر أو ينقص عشر سنوات ؟؟ أريد أن أفهم .. أتدرون كيف ينتصر الرجال ؟؟ أنت .. وأنت ... وأنت .. أجيبوا .. سأجيب أنا .. ننتصر بالموت .. المنهزمون يموتون .. موتًا ماديًا أو معنويًا .. فما قيمة الحياة بالنسبة للمنهزمين ... إننا إذ نموت ونحن نناضل من أجل الحق ففى ذلك حياة .. ونعيم .»

وجرت فاطمة حاسرة الرأس صوب الشارع، وحاول إخوتها اللحاق بها دون فائدة .. ووقفت أمها ترمق ابنتها وهى تتوارى بعيدًا فى الشارع الضيق الطويل .. ودموعها على خديها، وغمغمت وقد خنقتها الدموع ..

– «فلتحرسها يا رب ..»

❁❁❁

الفصل ١٨

لم تكد فاطمة تستقر على مكتبها فى دار الصحيفة حتى انفجرت باكية، تطلع إليها زملاء القلم دون أن يفعلوا شيئًا، وبعد أن انتهت من نوبة البكاء، وجففت دموعها، حمل إليها أحدهم كوبًا من الشاى وأعطاها قرصًا مهدئًا للأعصاب، نظرت إليه فى امتنان وابتلعت القرص.. وهمست فى انفعا:

– «آلاف الضحايا فى شتى الأنحاء ..»

ولم لم يجب أحد استطردت:

– «إنها تصفية دموية رهيبة ..»

وأخيرًا تكلم أحد المحررين السياسيين:

– «سوف تعترف بعض الدول بالوضع الجديد، هذا ما فهمته وأنا أستمع لتعليق الإذاعات ..»

وعلق زميل له فى نفس القسم السياسى:

– «اتعتقدون أن لأمور ستمر هكذا ببساطة دون مقاومة من جانب الشعب الذى يذبح علنًا دون إدانة ؟؟»

قالت فاطمة:

– «لقد فتح رجال الحزب باب الفتنة على مصراعيه ..»

وصاح أحدهم فجأة:

– «أسمعوا ..»

وأنصت الجميع، كان هناك ضجة عالية، وهتافات راعدة، وطلقات رصاص: ورائحة بارود، وتجمهر المحررون لدى أحد النوافذ المطلة على الشارع العمومى، فرأوا حشدًا ضخمًا من

المتظاهرين رافعين الأعلام الموسومة بشعار الحزب ، وهناك لافتات كثيرة كتبت بلون أحمر كالدم ، استطاع أحد المحررين أم يقرأها بوضوح . مكتوب عليها «اقتل .. أقتل» – الموت للخونة – لا حرية لأعداء الشعب – «لا محاكمات ولا اعتقالات ، بل قطع الرقاب فى الطرقات» عاش الزعيم بطل التصفية الدموية .. «بالحديد والنار تنتصر الثورة» .. «المشانق للخونة» . الرحمة انهيار .

ودخل رئيس التحرير فجأة وهتف بالجميع ، فعادوا إلى أماكنهم ، ثم قال انصتوا إلى :

– «لن نعتدى على أحد .. ولكن هل هناك ما يمنع من أن يعتدى علينا بعض المتوحشين ؟؟ لا توجد أية ضمانات بالنسة لنا ، فنحن مضطرون إذن للدفاع عن أنفسنا ..»

قالت فاطمة :

– «ما معنى ذلك ؟؟»

التفتت رئيس التحرير إلى أحد الرجال الذين معه وقال :

– «أين الحقيبة ؟؟»

فسلمه الرجل حقيبة سوداء ، ففتحها وأخرج منها بعض المسدسات وكمية من الذخيرة ، وزجاجات مولوتوف ، وقنابل مسيلة للدموع ، وقال رئيس التحرير :

– «ليأخذ كل واحد منكم مسدسًا .. ولا يستعمل إلا للدفاع عن النفس .. لقد فكرت ، ورأيت أنه لا يصح أن نموت كما تموت الكلاب .. إننا مضطرون لذلك ..»

قال المحرر الفنى ورفيقه المحرر الرياضى :

– «نحن لا نعرف كيف نستعمل هذه الأشياء ..»

– «هنا من يعرفون ، تستطيعون أن تتعلموا منهم ..»

ودخل في ذلك الوقت أحد البوابين والرعب يكاد يقتله ويقول :

– «سيدى المتظاهرون أمام باب المبنى، وقد بدأوا في قذفه بالأحجار .. سيقضون علينا لا محالة ..»

– «هذا ما توقعته ..»

انهالت الأحجار ، فتحطم زجاج النوافذ ، وتطايرت شظاياه في كل الأنحاء ، وانطلق الرصاص عشوائيًا ، وتقدم ثلاثة من رفقاء الحزب لاقتحام باب السور ، ولما اعترضهم الحارس العجوز أردوه قتيلًا بعدد كبير من الرصاصات ، كانت فاطمة عند ذاك واقفة بأعلى السلم ، وشهدت المنظر الدامى فأطلقت عيارات نارية من مسدسها ، فارتمى أحد الرفاق الثلاثة على الأرض مضرجًا بدمائه ، وكانت فاطمة تهتف :

« العين بالعين ..» فجرها أحد المحررين إلى أعلى وهو يقول :

« إن وقوفك هكذا يعرضك لموت محقق » لم تكن في وعيها ، كانت تحاول أن تنتزع نفسها منه لتواجه الموجة العدوانية التي تدهمهم في عقر دارهم دون سبب معقول ، ولكن عندما سقط الرفيق هاجت جموع المتظاهرين واندفعوا كالمجانين صوب الباب الحديدى المغلق يهزونه في عنف، واستمر تبادل إطلاق الرصاص، وصاح أحد المتظاهرين :

– «احرقوا الدار على من فيها ..»

وسرعان ما قذفوا قطع القماش المبللة بالبنزين والبترول في أنحاء شتى من المبنى ، فاندلع اللهب في أماكن متفرقة .

وسمعت فاطمة عويلًا خلفها ، فنظرت فإذا بمحرر الصفحة الفنية ذى السوالف الطويلة يرتمى على المنضدة ، ودموعه تغرق الأوراق ، والمسدس ملقى في إهمال أمامه دون أن يمسه .. نظرت إليه في احتقار ثم اقتربت منه قائلة :

– «ألا تخجل ؟؟»

دق المنضدة فى ذعر وقال :

– «لا أريد أن أموت ..»

– «حسنًا أخرج وقل لهم ذلك ..»

– «عشت أمقت السياسة طول حياتى ..»

– «لا قيمة لما تقول ..»

– «وهبت نفسى للفن ..»

– «فنك تافه لا معنى له»

– «القتال للحيوانات .. لم أخلق لذلك»

جذبته من شعره فى عنف فوقف ونظر إليها فى ذهول، فعاجلته قائلة :

– «خذ مسدسك ... التتار الذين بالخارج لا يفرقون بين فنان وسياسى، ولا يعرفون البرئ من المسئ، ليس هناك سوى شيء واحد تفعله ... أن تدافع عن نفسك ... أى إنسان يفعل ذلك .. وكذلك الحيوان .. أتفهم ؟؟»

أمسك المسدس بيد مرتجفة، لكنه سرعان ما رماه وهو يصرخ :

– «الحريق .. الحريق ..»

امتلأ أجواء المبنى بالدخان ورائحة البترول المحترق، واشتد تبادل الرصاص ورمى زجاجات «مولوتوف» بين المحاصرين والمهاجمين، وقدم رئيس التحرير وقال :

– «اقذفوا بالقنابل لمسيلة للدموع ...ثم اهربوا من النوافذ والثغرات .. أو انزلقوا على أنابيب المياه .. افعلوا أى شيئ كى تخرجوا من هنا وإلا احترقنا ..»

وتواثب المحررون فى كل ناحية، وبقى المحرر الفنى يتلفت يمنة ويسرة فى بلاهة لا يدرى أين يذهب، وبعد دقائق نظر حواليه فلم يجد أحدًا .. فارتمى يبكى ...كانت صور الممثلين والممثلات الجميلات، وفتيان الشاشة ملقاة على مكتبه، الصور تبتسم له، وكأنها من عالم آخر لا تحس بآلامه وأحزانه، وضياعه، فانقض عليها يمزقها فى هوس، اللعنة على كل شيء ... على الفن .. والسياسة .. على الحياة كلها ... ما سر هذا الشقاء كله، ألا يمكن لأى إنسان مهما التزم الحياد والبعد عن المشاكل، ألا يمكن أن يعيش فى سلام ؟؟ ؟ امتلأت الغرفة بالدخان ... شعر بما يشبه الاختناق، أخذ يسعل ويسعل، ويجرى داخل الغرفة كفأر حبيس فى مصيدة ... وظل يجر ويلف ويدور حتى وهنت قواه، إن بقى هنا مات محترقًا أو مختنقًا، وإذا وثب من النافذة فقد تتلقفه رصاصة، أو يمسك به الوحوش فى الخارج، وظل يفكر حتى شعر بدوار ... حاول أن ينهض فلم يستطع، لم يعد قادرًا على رؤية شيء ... الدخان صبغ الغرفة بلون ضبابى بدأ أمامه كمحيط كبير من الأوهام والرؤى المزعجة والأشباح المخيفة ... ورويدًا رويدًا فقد الوعى .. كان الوحيد الذى مات هو المحرر الفنى .. ولم تستخرج جثته إلا بعد ثلاثة أيام ..

وعادت فاطمة إلى بيتها .. كانت مغبرة .. والأوحال والهباب تلوث ثيابها البيضاء، ودلفت إلى البيت صامتى .. وما أن ارتمت على السجادة المهترئة فى وسط الصالة حتى همست :

– « أريد أن أشرب ..»

ناولتها أمها كوبًا من الماء، وعادت فاطمة تقول :

– « لأول مرة فى حياتى أشعر بروعة القصاص .. وأتلذذ بمذاق

النصر .. شعرت وأنا أطلق عليهم الرصاص أننى آخذ بثأر البواب العجوز .. وبثأر المسكين .. وأنتقم للرجل الذى يعيش خلف الأسوار رهن المحاكمة .. ولأبيه المشلول ..»

دقت أمها على صدرها فى استغراب :

– «تقولين أنك قتلت أحدًا ؟؟»

هزت رأسها فى تأكيد :

– «نعم رأيته يتدحرج كالخنزير .. والرعب يطل من عينيه كان أتفه وأجبن مما تتصورين .. لعله كان يظن أنه لابد سيقتل الآخرين دون أن يجرؤ أحد على قتله ..

تراجع الكثيرون ممن حوله حينما سقط .. لكنهم عادوا اندفعوا معتمدين على كثرتهم .. وعلى البيانات التى يصرخ بها الراديو .. لقد تبين لى أن قوة رجال الحزب فى هذا البلد أسطورة تافهة ..»

طأطأت الأم رأسها فى أسف وقالت :

– «حتى الذين عرفوا بعدائهم لم يتسابقون الآن فى إصدار بيانات التأييد عبر الأثير ، ويشتركون فى المظاهرات الصاخبة ...

الناس يا ابنتى مع المنتصر .. لا قيمة الآن لأية مقاومة ..»

– «أعرف أن الموقف يدعو لليأس ..»

– «فلنصمت إذن ..»

– «لا .. فلنمت إذن .. كيف تكون الحياة بدون الحرية والأب الخطيب ..»

وكيف نحيا فى ظل الوحوش .. الذين جعلوا من الجوع والعدالة أغنية يترنمون بها ، وهم متخمون ، ولا يعرفون للعدالة معنى ... إنهم مجموعة من مترفى الثقافة ، وأنصاف المتعلمين ، يتعلقون بالبدع ، ويبغون الكسب لأنفسهم لا لشعوبهم .. لم أشهد فى مظاهراتهم حافيًا

أو عاريًا .. أنهم يتكسبون باسم الثورة ويعبرون عن حقدهم وفشلهم وانحرافهم بالتحلى بالشعارات الثورية ... لا حل سوى أن يعود الجميع إخوة إلى راية الله . ..»

والتفتت فاطمة يمنة ويسرة وقالت :

– « أين إخوتى ؟؟ »

– « ذهبوا ..»

– « إلى أين ؟؟ »

– « قيل (أن الجنرال الأكبر » أفلت من الموت وأنه يجمع الجموع لخوض معركة ضد الثائرين ..»

– « أين الجنرال ؟؟ »

– « فى جاكرتا .. أو باندونج ..»

– « لكن جاكرتا سقطت كلها فى أيديهم ..»

– « لقد اتخذ من إذاعة بندونج مقرًا لدعوته الإعلامية ..»

صاحت فاطمة فى فرح :

– « الله أكبر .. سالحق بهم ..»

كان لانتصارات رجال الحزب خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية ضجة كبرى فى جميع أنحاء البلاد خاصة ، والعالم عامة ، كما أن العنف البالغ الذى صاحب انتصارهم له رنة أسى فى نفوس الملايين ، وانقسم أهل البلاد غير رجال الحزب إلى فرقين ، فريق رأى أن يهجر البلاد وينطلق إلى آفاق الله الواسعة ، وفريق آخر رأى أن يبقى ويسلم أمره لله ، فإذا تركوه وشأنه بقى حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً ، وأن قصدوا له ناضل حتى الموت ، وساد هرج ومرج فى شتى الأنحاء ، وسمع المعتقلون والمسجونون بالأخبار الأولى للثورة ، فانكمشوا فى زنزاناتهم ينتظرون مصيرهم الغامض ، فهم يؤمنون بأن ذلك اليوم يوم انتقام أكثر منه يوم تحرر ، وأن حياتهم

أصبحت عرضة للقضاء عليها فى أية لحظة، وكان بعض القادة المسئولون عن السياسيين المحجوزين أبعد نظرًا، فاعتصموا بالتريث حتى ينجلى الموقف، أما فى السجون الأخرى التى يشرف عليها عاملون فى الحزب، فقد بادرا بتوجيه الضربة للسجناء المساكين، مثال ذلك ما حدث فى المعتقل الذى كان «حاجى محمد إدريس» نزيلًا به .. فقد استمع المعتقل لأنباء الانتصارات كما وصلت إليه رسائل رسمية من مندوبى الحزب بأن الأمر قد استقر نهائيًا للثورة، فوقف فى المساء وأخذ يغمغم :

– «كان هذا يومك يا «أنانج» .. لكن ما الحيلة قد اختطفك الموت سريعًا ..»

وابتسم الرفاق فى سخرية، فقد كانوا يعرفون أن القائد هو الذى دبر قتله ... وبعد ساعة دعا القائد المخلصين من السجانة والضباط وأخبرهم بأن الأوامر صريحة بالقضاء على رجال ماشومى المحتجزين فى المعتقل غير أن أحد الضباط قال : –

– «سيدى القائد .. أريد أمرًا كتابيًا موقعًا عليه منك ..»

نظر إليه القائد فى اشمئزاز وقال :

– «المعركة ضارية، ولا مجال للتردد والخوف ..»

– «أنت قائدنا، ونحن طوع أمرك .. لكن أمرًا كهذا يجب أن يكون كتابة ..»

صاح القائد فى غضب :

– إن من يمتنع عن تنفيذ أوامرى سوف أطلق عليه الرصاص .»

– «أنا لم أمتنع، ولكن أريد أمرًا مكتوبًا ..»

– «حسنًا .. إليك الأمر ..»

وكتب بضع كلمات وقعها بيد مرتجفة، ثم قذف بالورقة فى وجه الضابط وهو يغمغم :

– «ساعة الصفر فى العاشرة مساء ..»

وفى الساعة المحددة حشد القائد عددًا من الجنود المسلحين بالمدافع الرشاشة، وأمرهم بأن يقضوا على النزلاء حجرة حجرة، ولا يصح أن يفتحوا أكثر من حجرة للنزلاء فى وقت واحد، غير أن الذى أدهش القائد هو أن الضابط الذى تسلم الأمر الكتابى كان قد اختفى ولم يعثر له على أثر، ومع ذلك فقد اتجه القائد بنفسه ووراءه الجنود المسلحون، ثم فتحوا أول حجرة .. كان بعض المسجونين نائمين، والبعض الآخر جالسًا يترقب، ولم تطل دهشة المسجونين أو تساؤلهم فقد انهمر الرصاص فى جنون، وانداحت بضع صرخات واهنة فى جوف الصمت والظلام ... ثم ساد السكون، وفى الزنزانات الأخرى أفاق النائمون مذعورين.

طارت الأحلام واصطبغت الآمال بالسواد، فلم يغب عن أذهانهم معنى الصراخ ودمدمات الرصاص، وخاصة أنهم قد علموا منذ الصباح أن رجال الحزب قد سيطروا نهائيًا على مقاليد الحكم فى حماية الرئيس وتأييده، وأخذت فرقة الموت تنتقل من زنزانة إلى أخرى عبر جو من الرعب القاتل الذى لا يرحم .. كان «حاجى محمد إدريس» راقدًا فى غرفة الضماد التى تقع فى طرف من أطراف السجن بعيدًا عن الزنزانات .. وسأل حاجى محمد المضمد ذا السترة العسكرية الواقف إلى جواره قائلاً:

– «ماذا يجرى هناك ؟؟ قلبى يحدثنى أن جريمة كبرى ترتكب ..»

كان المضمد يقف جامدًا حزينًا، وغمغم:

– «لا أعرف ..»

تبللت عينا حاجى محمد بالدموع وقال:

– «لقد حانت لحظة الوداع .. الإخوة يموتون ظلمًا .. يخيل إلى أن الملائكة تشهد المجزرة الحزينة ..»

هز المضمد رأسه قائلاً :

– «لقد انتصروا ..»

– «بل النصر لهؤلاء الشهداء الأبرار ..»

– «لكن الملائكة الذين تتحدث عنهم لم يتدخلوا لإنقاذ أخواك ..»

– «لست أدرى كيف أشرح لك الأمر .. كان حمزة بن عبد المطلب هو عم الرسول .. لكنه مات أبشع ميتة .. غير أن طبول النصر ظلت تدق حتى انتشرت دعوة الله فى أنحاء الدنيا ..»

التفت إليه المضمد قائلاً :

– «وأنت ، ألا تخاف الموت ؟؟»

– «آه .. ومن قال ذلك ؟؟ أنا بشر ..،قلبى يغص بأحزان كثيرة .. ولا مفر من الموت ..»

وخطا المضمد إلى الخارج بضع خطوات ، ونظر يمينًا وشمالاً ، ثم عاد مسرعًا وقال :

– «حاجى محمد ..»

– «نعم ..»

– «لا أريدك أن تموت ..»

– «إنها مشيئة الله ..»

– «تعال .. تعال ..»

ثم جذبه المضمد ، وأنزله من فوق فراش المرض ، وأدخله تحت السرير الواطئ ، وهو يقول :

– «فلتختف هنا حتى الصباح .. لا تخف .. لقد رأيتهم ينصرفون

خارج السجن بعد أن قضوا على كل من فيه .. ربما نسوك فى عجلتهم ..»

انتهت المجزرة ، وجلس القائد وحوله الرفاق ، وأخذوا يعبون من الكؤوس ، القائد يحلم بالمجد والنياشين وبمنصب كبير فى العاصمة ، وبسجل حافل من البطولات ضد أعداء الثورة ..،أخذ القائد يقهقه ، فقال أحد الضباط :

– «ما الذى يضحكك ؟؟ »

– «تصور الصحف الأجنبية العميلة وهى تكتب عنى وتنعتنى بالجلاد .. وأتصور قصائد الشعر والقصص التى يكتبها الفنانون عن المجزرة التى صنعتها فأضحك .. ها .. ها ..

لكنى سأدخل العاصمة مرفوع الرأس .. وسينهض الزعيم والرفاق لاستقبالى كما يستقبل الرجال العظام .. الآن بدأت أفهم الحقيقة .. صبوا مزيدًا من الخمر .. دع الرجال ينقلوا الجثث إلى المقبرة الجماعية .. انتظر .. إذا وجدتم أحدًا جريحًا لم يمت بعد فليدفن مع الموتى .. انتظر .. ولتبحث عن بعض مقرئى القرآن ليرتلوا على المقبرة بضع آيات من كتاب الله .. انتظر .. وإذا كان هناك رجل صالح من الضحايا فلتقيموا له وحده قبة وضريحًا ليكون مصيدة للحمقى من المتصوفة .. املأ الكأس يا رفيق .. أن تقتل إنسانًا فهذا أمر بسيط .. مات أبى وأنا صغير السن .. ذبحه قطاع الطرق .. هكذا سمعت .. يومها أقسمت أن أنتقم من القتلة .. بل صممت على أن أنتقم من الذين تسببوا فى فرض الجوع على الجموع .. أشربوا وأمرحوا .. وأرقصوا ، ففى هذا اليوم بدا تاريخنا المجيد ..»

كان يتكلم وحده ..

وفجأة جاء أحد الضباط وقال :

– «سيدى القائد .. هل سمعت إذاعة باندونج ؟؟ »

وقال القائد وهو يترنح :

– «لم أسمعها .. ولكنى على يقين من أنها تردد بيانات الثوار التى تصدر عن العاصمة ..»

قال الضابط ممتقع الوجه :

– « أفق يا سيدى القائد ...فقد حدثت كارثة كبرى ..»

وقف القائد مبهوتًا وقال :

– «ماذا جرى ؟؟ »

– «تولى الجنرال الأكبر القيادة ، وحاصر العاصمة ، وكاد يقضى على الثورة ... والقوات المسلحة تمشط المدينة .. نحن نتراجع ..»

هب القائد ، وصرخ :

– «مستحيل ..»

– «ولماذا أكذب عليك .. هذا هو الراديو ..»

أمسك القائد بالراديو ورماه على الأرض وأخذ يدقه بحذائه الغليظ ويقول :

– « إنها أكذوبة .. القصد منها توهين قوى الثوار ..»

– «سيدى القائد يجب أن تتصرف بعقل وإلا تعرضنا لعقاب مدمر ..»

اقترب منه القائد ونظرات الجنون تطل من عينيه :

– «ماذا تعنى ؟؟ »

– « الناس هنا يعرفون من نحن ، فقد يهاجموننا ..»

– « الناس هنا معنا ..»

– « لا أصدق .. أنهم ينافقوننا .. كانوا خائفين فاظهروا الولاء لنا ..،لا تنسى أننا قمنا بعمل فظيع ..»

تلاحقت أنفاس القائد ، وطلب راديو آخر ، وأخذ يستمع إلى إذاعة باندونج ، ثم أدار المؤشر صوب العاصمة ، وكم كانت دهشة الجميع

عندما سمعوا أن إذاعة العاصمة هى الأخرى قد احتلتها قوات الجنرال .

انهار الرجال ، ولم يستطيعوا أن ينطقوا .. وتساءلت أعينهم الحيرى فى رعب مهول ، وأخذ القائد يدق رأسه ويصرخ :

– « لا أصدق .. لا أصدق ..»

وهدر صوت قوى يعرفه الجميع قائلاً :

– « تلك هى الحقيقة أيها الأحمق ..»

ونظر القائد عبر الظلام وقال :

– «من هذا المجنون ؟؟ »

– « الضابط الملازم ..»

– « هل جننت ؟؟ »

– « قف مكانك لا تتحرك أيها السفاح ..»

ونظر القائد المشدوه ، فإذا بالملازم مصوبًا نحوه مدفعه الرشاش ومن خلفه نخبة من الضباط والجنود الشرفاء .. تطلع إليهم القائد فى دهشة وقال :

– « أنتم ؟؟ »

رد الملازم :

– « نعم ..»

– «لكنكم كنتم تحضرون معنا اجتماعات الخلايا الخاصة للحزب ..»

قال الملازم :

– « إن تحركت أرديتك قتيلاً أنت ومن معك .. ألقوا السلاح ..»

وساق الملازم الجميع إلى زنزانات خالية فى السجن ، ثم أغلق عليهم الأبواب وهو يقول :

– « ذوقوا أيامًا قليلة حتى يأتى يوم المحاكمة العادلة ..»

وخرج حاجى محمد من تحت السرير بأمر من المضمد الذى أخذه إلى الملازم ، وبعد أن علم كل شيء قال حاجى محمد :

– « أنا أبكي الشهداء .. لكنى أقول إنك عناية الله مجسمة فى رجل شريف . . .»

انحنى الملازم فى احترام وقال :

– « أعطنى يدك أقبلها .. فقد كنت مثالاً لإيمان الآباء العظام ..»

وفى اليوم التالى دبر الملازم وسيلة لنقل حاجى محمد إلى العاصمة ، وأوصاه بالمحافظة على نفسه ، والاستعداد ليوم قريب يدلى فيه بالحقيقة الخالصة ليعلم الناس ما كان يجرى فى الظلام .. وطوال الطريق كان حاجى محمد يرى البشاعة التى تعافها النفس .. القبور الجماعية .. أماكن العزل الذين قتلهم رجال الحزب وعلقوهم على نواصى الشوارع .. التلاميذ الصغار وقد هدمت على رؤوسهم دور العلم .. عشرات الألوف من القصص والحكايات التى تبدو لأول وهلة أنها خرافية .. ورأى شيئًا آخر .. رأى فلول المنهزمين يولون الأدبار فى كل اتجاه .. وغمغم :

– « يا له من عذاب ! ! لكنها حكمة الله ..»

العاصمة تبدو خاوية مهجورة بسبب منع التجول ، وحاجى محمد داخل سيارة إسعاف يحمل سائقها تصريح مرور ..

وجه المدينة تغير تمامًا ، إنها تبدو كمريض يمر بطور النقاهة ليستأنف حياة الصحة والعافية ، بعد جرحه الخطير ...

قالت زوجته وقد اتسعت عيناها دهشة حين رأته :

– « هل عدت يا حبيبى ؟؟ »

غمغم وهو يقبل رأسها ويربت على ظهرها فى ود :

– «يقول شاعر عربى قديم» :

وكـل مـسـافـر سـيـؤوب يـومًـا
إذا رزق الـسـلامـة والإيـابـا

همست وهى تساعده على الجلوس :

– «هل صابك مكروه ؟؟»

– «كان حلمًا رهيبًا .. آه .. حذار أن تلمسى ظهرى ..»

– «ألا تستطيع المشى ؟؟»

– «لا أظن أننى أستطيع أن أمشى بعد الآن ..»

ثم تلفت حواليه :

– «أين البنات والأبناء ..»

– «يخوضون أشرف معركة ضد الشر تحت لواء الجنرال .»

– «ما أسعدنى أنه رفيق الكفاح فى السنين الخالية ..»

ثم أخذ يترنم بصوت باك حزين بكلمات من القرآن الكريم :

«﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ۝ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾» .

كان أبو الحسن منكمشًا فى سجنه مهمومًا حزينًا ، تتراءى له صورة العنف الثورى فى الخارج فيبتهل إلى الله بالدعوات ، وتحوم فى خياله صورة الأب المشلول ، والأم المسكينة ، والخطيبة المعذبة ، والصهر المفقود ، تلك هى الجزر الخضراء التى يمتلكها الآن التتار ويبثون فى جنباتها الرعب ، أيمكن أن يكون ما يفعلونه هو الحل الأمثل ؟؟ وكيف تقيم الدماء والمظالم والسجون دعائم المجتمع الفاضل ؟؟ لا قيمة للنظرية الاقتصادية أو الفلسفة الاجتماعية ما لم ترع حرمة الإنسان ، وتحترم آدميته ، فالنفوس الحاقدة الدنيئة من العسير أن تخلق مجتمع السعادة والرخاء ، والفقر ليس كائنًا شريرًا

يستأصل بالسيوف ،ولكنه مرض يحتاج إلى معالجة حكيمة ، ولمسة حنان للجسم الذى يعيش فيه ، وإلا قضى على المرض فى نفس الوقت ، أشياء كثيرة ، وأفكار مختلفة كانت تتزاحم فى رأس أبى الحسن ، وهو يستمع إلى الأنباء المثيرة من مكبر للصوت معلق فى أعلى مكان بالسجن ، وما أن تغيرت الصورة فى المساء ، وأخذ رجال الحزب يلوذون بالفرار ، وخاصة عندما انطلق صوت الشعب الحقيقى يعبر عن المأساة حتى وقف « أبو الحسن » وصاح بأعلى صوته :

– « الله أكبر ولا عزة إلا بالإسلام .. الله أكبر والعزة لله .»

وأتى إليه أحد الحراس ، واقترب من باب الزنزانة وقال :

– « خير لك أن تصمت ..»

– « أننى أعبر عن حقيقة شعورى ..»

– « لا تتعجل .. وانتظر حتى تنجلى الأمور »

– « ليكن ما يكون ..»

– « ما دمت غير مقتنع بكلامى فلتلتزم بلائحة السجن ..»

وصمت أبو الحسن مرغمًا ، وعاد الحارس يقول :

« هذا المكان غريب .. الكثيرون أتوا إليه سجناء ثم خرجوا منه وزراء ...،كثير من الزعماء ، عادوا إليه تثقلهم القيود .. هكذا الدنيا .. ولذا ترانى لا أكترث كثيرًا لما يحدث .. أننى أؤدى عملى هنا بأمانة دون النظر لأى ماض أو مستقبل .. المعارض والمؤيد عندى سواء ... والإنسان سواء أكان وزيرًا ذا سلطة ، أو سجينًا مسلوب الإرادة ... أنا هنا أرى الإنسان عاريًا من أى زيف . . .»

وقهقه الحارس وقال :

– « هناك أحد الخطباء المشاهير ، كان يهز المشاعر عندما يخطب ، ويلهب حماس الجماهير ، ويشعل الثورة فى نفوسهم .. كان

شجاعًا من الطراز الأول .. العجيب أننى رأيته هنا ذات مرة ، وبعد أن صفعه ضابط المخابرات صفعة واحدة انهار باكيًا كامرأة .. دنيا »

وأفرج بعد يومين عن « أبى الحسن » يا لها من لحظات .. كان بالأمس يشعر ليأسه – أنه لن يخرج من السجن مطلقًا ، وها هو الآن يعود إلى الدنيا بكل ما فيها من جمال وزهور وحياة .. آه .. أنه يرى مقر الحزب فى العاصمة محترقًا كالخرائب الأثرية بعد أن عصفت به نقمة الجماهير التى طال صبرها .. لكن رائحة الدم والبارود والاحتراق ما زالت تزكم الأنوف ..،دخل البيت .. هبت أمه من مكانه وهى لا تكاد تصدق .. لم تطلق زغرودة .. بل ضمته إلى صدرها الواهن ضمة قوية أودعتها كل عواطفها .. وأسرع إلى أبيه ..

كان الرجل بين اليقظة والمنام .. التجاعيد ..،الشحوب والفم المنحرف من أثر الشلل ، وظلال السنين الطويلة من العرق والكفاح والشقاء :

– « أبى أبى ... ها قد أتيت إليك ..»

فرك الرجل عينيه ، ونظر بإمعان :

– « هل أنا فى حلم ؟؟ ؟ »

واحتضن « أبو الحسن » أباه .. والعجوز يغمغم :

– «كان هذا منتهى أملى فى الحياة ..»

كلمات كثيرة قيلت ، ونظرات تفيض بالشوق والحنان ، وقال العجوز بلهجة متعثرة بطيئة :

– « ماذا يدور فى الخارج ؟؟ »

– «رجال الحزب أرادوا قلب النظام ..»

– « ودارت المعارك ؟؟ »

– « نعم وقتل خلق كثير ..»

وأخذ العجوز يهتز من نوبة ضحك مفاجئة والدموع فى عينيه ويقول :

- «لست أدرى لماذا يقتل الناس بعضهم بعضًا .. القتال لا يجلب غير الحزن والدمار .. هذه الفتن لا يصنعها إلا مفتونون أو قطاع طرق .. أو قوم نزعوا خشية الله من قلوبهم ..»

- «لقد انتهت الأزمة ، وستعود الحياة إلى مجراها الطبيعى ..»

قال العجوز وهو يسعل :

- «لقد ظننت بادئ ذى بدء أن الهولنديين قد عادوا ثانية ..»

وذهب أبو الحسن بعد ساعة إلى بيت «فاطمة» ، وكم كان سروره عندما رأى حاجى محمد مضطجعًا فى سريره يرشف كوبًا من الشاى .. وغمغم حاجى محمد :

- «العالم المتقدم الآمن ، ينمو ويترعرع بهدوء ، وهنا يأكل الناس بعضهم بعضًا .. لو فكر الناس لخجلوا من هذه الحماقات ..»

ورد أبو الحسن :

- «يا لها من أيام !!»

- «فى أيام السجن السوداء خيل لى أننى رهن عذاب القبر .. لم أكن أصدق ما تشهده عيناى ..»

- «الحمقى الآن يجنون ثمرة الانحراف ..»

وأخذ الاثنان يتجاذبان أطراف الحديث عما جرى لهما ، ودمعت عينا حاجى محمد إدريس وهو يروى مذبحة السجن التى راح ضحيتها عدد من رجال ماشومى الأبرياء ..

حين اندحر رجال الحزب ، وولت جموعهم الأدبار أمرت القيادة العامة بتجنيد مجموعة خاصة للبحث عن «الزعيم» وغيره من الهاربين ، وأصرت «فاطمة» أن ترافق المجموعة الذاهبة للبحث عن

الزعيم .. وكانت التحريات تأتى عنه من آن لآخر ، ولعبت فاطمة دورًا بارزًا فى هذا المجال ، إذ كانت تقصد بعض التجمعات متخفية ، وتزعم أنها تحمل بعض الأنباء الهامة وتريد إبلاغها للزعيم نفسه ، وكان قد أشيع أن « الزعيم » قد هرب إلى الخارج ، غير أنها استطاعت أن تكشف هذه الخدعة ، فقد علمت من إحدى فتيات المنظمة أن « الزعيم » لم يهرب خارج البلاد ، وإنما هو قد عمد إلى التخفى كى يجمع أعضاء الحزب ، ويخوض حربًا شعبية ضد الجيش وسرعان ما أبلغت هذه المعلومات للقيادة المسئولة ، بل واستطاعت أن تحدد الجهة التى ذهب إليها ..

كان « الزعيم » يرغب فى الاختفاء فى الأدغال ، وإعلان حرب العصابات ، ودخل القرية فى طريقه إلى هدفه ، على أن يستريح بعض الوقت ، ووجد أحد معارفه هناك فذهب إليه على التو وكان الزعيم متخفيًا فى زى حمال .

الليل ساكن .. ووجد نفسه قد أغلق باب بيته .. ونظر إلى الزعيم الكبير وقال فى أسى :

– «لكم يحزننى أن تبدو فى زى حمال وأنت الزعيم الكبير ، والوزير المبجل ..»

ابتسم فى شحوب وقال :

– « لا يهم المظهر ..»

– « ألم تعد لنياشين الرئيس قيمة ..»

– « أنا لا أفكر فى غير النجاة من مخالب الجيش ..»

– « يخيل إلى أنكم لا تتقنوا رسم التحركات عند الثورة ..»

تنهد وقال فى حزن :

– « كل شيء كان بمنتهى الدقة ..»

- «ماذا جرى إذن ؟؟»

- «هناك أيد خفية تلعب فى الخفاء ..»

نظر إليه الصديق فى شك وقال :

- «اسمح لى أيها الزعيم .. أن لا أصدق ذلك .. كانت العاصمة محاصرة .. وكان كل شيء فى أيديكم الجنرالات قتلوا .. والزعماء فى السجون .. والرصاص أودى بحياة الكثيرين من المعارضين .. الذين قاموا ضدكم تلقائيًا ..»

وابتلع الصديق ريقه وقال فى حرج :

- «كان الشعب معهم ..»

وضحك الزعيم وقال ساخرًا :

- «لقد ساعدهم الله ..»

- «ولم لا ؟؟»

نظر فى ضيق وغيظ وقال :

- «الله لا شأن له بالثورات ، ولا يتدخل فى الهزيمة أو النصر ..»

أخفى الصديق امتعاضه ، ثم خرج ، وبعد ساعة عاد والاضطراب باد عليه وصرخ :

- أيها الزعيم ..

- «ماذا جرى ؟؟»

وأفاق الزعيم من نومه مندهشًا ، بينما قال الصديق :

- «القرية محاصرة تمامًا ، ويملؤها جنود الجيش وهم يفتشونها بيتًا بيتًا ..»

صرخ فى جنون :

- «مستحيل أن يمسكوا بى ..»

وتدراسا الأمر بسرعة، وأخيرًا وجدا مكانًا آمنًا خلف خزانة بالدار، اختبأ فيه الزعيم، كان المكان كالكهف الصغير المظلم، وكان الزعيم يشعر برعب قاتل، ويكاد يختنق فى المكان الضيق، وذكر الماضى.. ذكر الآلاف المؤلفة وهم يستمعون إلى خطبه النارية. والأكف تلتهب بالتصفيق، والحناجر تعلو بالهتاف، وذكر الصحف وهى تبرز مقالاته، تتصدرها صورته، وذكر زياراته فى الخارج والاستقبالات الحارة له، وذكر الآمال العريضة التى كان ينعم فى أحلامها.. كل شيء ذهب.. حتى زوجته لم تعد إلى جواره.. ها هو وحده.. مخبأ كالقبر.. وظلام.. ورعب ومطاردة أكان جميع الذين قتلهم أو اعتقلهم رجال الحزب يشعرون بهذه الآلام النفسية البشعة ؟؟

وساوره ندم قاتل وسمع ضجة قريبة.

- «لقد أتوا..»

همس بها وهو فى شبه غيبوبة من الخوف الشديد، صديقه يؤكد للجنود أنه فعلًا كان هنا، ولكنه رحل وهو لا يدرى أين ذهب، ويأخذ بعضهم الصديق ويمضون، والبعض الآخر يبقى بالدار.. ويذهب جندى صغير يبحث هنا وهناك شيء ما يجذبه صوب هذه الخزانة العتيقة.. وينظر إلى الخزانة، ويتطلع تحتها وفوقها، ويحاول جاهدًا أن ينظر وراءها فى حيز ضيق صغير.. وغمغم الجندى البسيط قائلًا:

- «إننى أشم هنا رائحة الجريمة.. زحزحوا هذه الخزانة..»

كانت مفاجأة مذهلة حين وجدوا شخصًا مختبئًا فى مكان ضيق خلف الخزانة، وسرى النبأ فى كل مكان.. سقط الزعيم كان يمضى بين كوكبة من الجنود كسير النظرات، شاحب الوجه، يحاول أن يتماسك.. وازدحم الناس واختلط الحابل بالنابل.. المشهد مثير..

والزعيم الكبير يمضى تائهًا غائم النظرات والضجيج يملأ أذنيه ..
« القاتل .. محرك الفتنة .. الظالم . لعبة الاستعمار ..»
أتت إليه فاطمة وفى يده الأغلال :
– « هل نحن نلتقى لآخر مرة ..»
نظر إليها فى ذهول ودهشة وغمغم :
– « من أنت ؟؟ »
– « الفريسة التى أفلتت من بني مخالبك ذات يوم وأنت ملك غير متوج ..»
– « اذهبى عنى ..»
– « ألا تريد الآن أن تلقى درسًا عن المبادئ وحق الشعب ؟ »
– « اذهبى ..»
وأدار وجهه بعيدًا عنها ، لكنها عادت وواجهته قائلة :
– « لقد أغرقت البلاد بفلسفتك فى بحر من الدماء .. ترددت فى شقاء ما رأته طوال تاريخها العريق » تمنى الزعيم فى هذه اللحظات أن تنطلق رصاصة تستقر فى قلبه وتنهى هذا العذاب ، لكن كيف ؟؟
لسوف يحاكمونه وينشرون جريمته الشنعاء ليرى الشعب المسكين كيف تزى السفاحون بزى المخلصين المصلحين ..
وقالت فاطمة وهى تنصرف مزهوة سعيدة :
– « لقد ساهمت بجهد متواضع فى الإمساك بك .. وسيكون ذلك شرف لى طول حياتى ..»
فى اليوم التالى نشرت قصة القبض على الزعيم فى صدر الصفحات ، وقالت فتاة وهى تتأمل فاطمة التى كانت تصرخ فى وجه الزعيم :
– « هذه الفتاة أعرفها .. عجبًا .. لقد كانت تسأل عن الزعيم .. لم

تكن منا إذن بل أجيرة حقيرة .. لابد من الانتقام منها مهما كان الأمر ..»

وفى صبيحة يوم ، قبيل الفجر بدقائق نفذ حكم الإعدام فى الزعيم ، ورمى الرئيس الصحف وهو يقرأ النبأ فى عصبية أن أصدقاء الرئيس يتساقطون ، وها هو كالسجين فى قصره ، ينتظر اللحظة التى يقذف به الشعب فيها إلى هاوية النسيان السخيفة ...

وفى الجزر الخضراء ورود جميلة ، تمتع النظر ، وتفوح بالعبير ، وتزهى بالروعة والجمال ، لكن مع الورود أشواك .. مع النصر الكبير كانت الفرحة تعمر القلوب ، وعيون كثيرة تذرف الدموع ، قصة الشوك والورود الأزلية .. وعاد أبو الحسن وعاد حاجى محمد إدريس . . . لكن «فاطمة» لم تعد إلا فى صندوق خشبى ... وملابسها البيضاء الطاهرة مخضبة بالدماء .. لقد انطلقت فى الظلام رصاصة آثمة أودت بحياتها .. سقطت عذراء جاكرتا شهيدة ، وفى يدها وردة حمراء ذات أشواك .. وعلى ثغرها ابتسامة رضى .. وفى جيبها مصحف صغير ، تبلل أهدابها الطويلة دمعة عشق خالد ..

وهتف حاجى محمد إدريس بصوت عال تخضله الدموع :

– « البقاء لله وحده .. وهناك .. هناك الخلود »

❁❁❁